

رواية

خفافيش كورونا

DIAGRAMMING AGAINST
COVID-19



خفافيش كورونا

إبراهيم رسول

رواية

إبراهيم رسول

الوراقية
دار للطباعة والنشر

خفایفینس کورونا

الكتاب : خفافيش كورونا

المؤلف: إبراهيم رسول

الصف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : 2021

ISBN:978-9922-9520-8-6

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (96) لسنة 2021

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

الورشة
دار للطباعة والنشر

عنوان الدار : بغداد - شارع المتنبى - مجمع الميالي - الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة

معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

نفايش كورونا

رواية

إبراهيم رسول

الهراتية
دار للطباعة والنشر

عندما تكون وسط الشر فإنَّ الأوان يكونُ قد فاتَ لتأخذَ حَذْرَكَ .

الفيلسوف الروماني سينيكا

الفوضى تعم العالم، و تتوالى الأزمات الاقتصادية، بينما تلوح في الأفق
أزمات النفط، و تتقد الحرب في كل مكان، إذ أنه زمن الثورة و الإغتيال
و العمليات السرية .

من فيلم killer Elite

يميلُ إلى العزلة غالباً، يعيشُ غريباً أو كالغريب، هكذا أوهمَ نفسه بأنه لا شبيهة له بينَ البشر، يُفكِّرُ بالمستقبلِ البعيدِ أكثرَ مما بينَ يديه وأمامه، دماغه لا يركنُ إلى هُدوءٍ أو سَكينة، مُضطربٌ، قلقٌ ومتوجسُّ على مُستقبلٍ يحلمُ به ولا يكاد يصلُ إليه، سمعَ والدهُ يناديه بأنه المهندس المعماريُّ الأشهر في البلدِ، لأن صديقَ أباه كان مهندساً ناجحاً مما جعله يكون من الطبقة الأرقى في المدينة، لا يعرف من الهندسة شيئاً ولم يحبها يوماً، إلا إنَّ طيفَ ذلك الغيِّ ظلَّ أمام عينه دائماً، يقصُّ القصص على نفسه ويروضها في قبول أيِّ المهن، في مرحلة الإعدادية لا تعرف النفس ما تشتهي وما تريد، في الصباح يودُ شيئاً وفي المساء يحلمُ بشيءٍ آخر بعيداً عن الأول تماماً، للنفس ساعات مفرحة وتارة ساعات غمٍ وكرب، الروحُ تتوقُّ إلى ما يُلائم مزاجها ويتكيّف لطبعها، وتأنف أن تُجبرَ على قبول ما لا تألف، الانطوائية التي يعيشها جعلته يختلفُ عن كثير من أقرانه، حرَمَ أشياء كثيرةً على نفسه بذريعة ألا يشبههم فيكون مثلهم، هو مميّزٌ وعليه أن يعيشَ بنرجسيةٍ عالية، خلقَ له عالماً في خياله بعد أن فشلَ في أن يذوبَ بما ذابَ عليه خِلاله، بعد أن خسرَ متعةً واقعه فلم يجد إنساً ولذّةً في حُلْمه، كانت درجاته في السادس العلمي محيية لآماله وآمالِ أهله، لم يجدَ من الجامعاتِ الحكومية ذات الدرجات العليا من تقبل به، لجأ إلى جامعةٍ أهليةٍ عسى أن يدركَ نفسه بعد

أن فعلت الخيبة فعلها به، حالة الخيبة وألم النفس التي عاشها كانت قاسية جداً، الضمير هو أقسى من أيّ سَوَطٍ، بل لعلّ عذاب الضمير أشد فتكاً وألماً بصاحبه، كَانَ ضميره يُذكره بخيبة الأمل الكبيرة، حالما ينأى الجميع يصعدُ إلى سطح الدار فيجهش بالبكاء، يضربُ رأسه ويلطم وجهه حتى يدركه التعب والنعاس، ينأى في السطح بعد ساعاتٍ من البكاء والنحيب، كَانَ يتوقع أن يَحْصُلَ على معدلٍ يدخله كلية الطب كخيارٍ أول والهندسة كخيارٍ ثانٍ، خيبة السادس العلمي كانت منغصة عليه كل أيامه حتى جاءه الفرج والحل الأخير، يدخلُ كليةً أهليةً، يجدُ نفسه مُحباً لها، شغوفاً، يتوقُّ أن يصل إلى يوم التخرج ليجد نفسه قد نال الوظيفة التي تجعله بمأمن من قلة فرص العمل، وتجعلهُ فخوراً بين أهله وأبناء عمومته الذين لم يصل منهم أحد إلى ما وصل إليه هو، بماذا يروضُ النفس ويُسكن من أنينها الذي ما زال يذكره بفشلهِ وبالأخص أن والده ظلَّ على الدوام يذكره بذلك الفشل، أقسم سيف على أن لا يجلس مجلساً يجمعه مع أبيه لئلاً يثير والده موضوع معدله البسيط والمؤمل الذي كان يُتَوَقَّع منه، أن تشعرَ بأنك فاشلٌ هو مدعاة أن تنتقمَ من فشلك بأيّ سبيلٍ، ربما يكون صديقه الذي سجنَ لأكثر من عشرين سنة هو أحد ضحايا الفشل الذي أصابه من توبيخ أمه له على الدوام، ظلت صورة صديقه الذي تحول من إنسانٍ سوي طيب إلى رجلٍ يبيع ويشترى الحشيش والممنوع ليجد السجن بانتظاره عند ثالثِ عمليةٍ يبيع

يُتْمَهَا، كَانَ يَسْتَرْجِعُ صُورَةَ صَدِيقِهِ وَيَذَكِّرُ كَيْفَ كَانَا يَلْتَقِيَانِ يَوْمِيًّا، وَيَذْهَبَانِ مَعًا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، كَمَا هِيَ الْمَرَاتُ الَّذِي عَبْنَا مَعًا وَحَلَمْنَا مَعًا لَكِنِ الْفِشَلُ وَالْخَيْبَةُ فَرَقَا طَرِيقَهُمَا، طَرِيقًا لِلسَّجْنِ وَطَرِيقًا لِلجَامِعَةِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، اسْتَطَاعَ سَيْفٌ أَنْ يَمْسُكَ بِنَفْسِهِ وَيَفْرِضَ عَلَيْهَا عَقُوبَاتٍ قَاسِيَةً يَخْفَفُ مِنْ حِدَّةِ صَدْمَةِ قَاسِيَةٍ كَادَتْ أَنْ تَصِيْبَهُ.

تَعَوَّدَ أَنْ يَنَامَ قَلِيلَتَهُ الْيَوْمِيَّةَ بَعْدَ الْغَدَاةِ مَبَاشَرَةً، لَيْسْتَأْنَفَ بَعْضًا مِنَ الْوَقْتِ لِئُرِيحَ جَسَدَهُ مِنْ تَعَبٍ وَقَلِقٍ أَرْهَقَهُ مُنْذُ سَاعَاتِ الصَّبَاحِ الْأُولَى، هِيَ السَّنَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ دَرَاثَتِهِ الْجَامِعِيَّةِ، قَسَمَهُ كَانَ مَرْغُوبًا بِهِ، لِأَنَّ التَّحْلِيلَاتِ الْمَرْضِيَّةَ تَصْنَفُ عَلَى التَّقْنِيَّةِ وَلَيْسَ إِلَى كَلِيَّةِ الْعُلُومِ الَّتِي أَصْبَحَتْ الْوِظِيْفَةُ بِهَا تَكَادُ تَكُونُ مَسْتَحِيلَةً، كَثِيرًا مَا وَعَدُوهُمْ بِالتَّعْيِينِ الْمَرْكَزِيِّ لَكِنِ دُونَ جَدْوَى وَأَمَلٍ، فَبَعْدَ تَخْرُجِهِ سَيَذْهَبُ رُبَّمَا لِيُبْحَثَ فِي مَقَاهِي وَمَحَلَّاتِ بَيْعِ الْأَلْبَسَةِ أَوْ غَيْرِهَا عَنْ فُرْصَةٍ عَمَلٍ يَعْيشُ مِنْهَا، حَالِمًا وَضَعَّ رَأْسَهُ عَلَى الْوَسَادَةِ حَتَّى أَقْبَلَ النَّوْمَ إِلَيْهِ، أَخَذَتْهُ الْأَحْلَامُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْيَسَارِ، أَلْحَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَتَابَعَ حَتَّى يَرَى كَيْفَ سَيَنْتَهِي هَذَا الْكَابُوسُ الْمَرْعَبُ، هَذِهِ الْكَوَابِيسُ تَقْلِقُهُ فِي نَوْمِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَأَنَّهَا لَا تَرِيدُ أَنْ تَنْفَكَ عَنْهُ، كَانَتْ أَحْلَامُهُ عِبَارَةً عَنْ فِتَاةٍ جَذَابَةٍ تَقْضِي مَعَهُ لَيْلَةً يَطْفَى بِهَا عَطَشَ نَفْسِهِ وَلَهِيْبَ فُورَانِ الْفِتْوَةِ فِيهِ، لَكِنِ الْحُلْمُ الْيَوْمَ غَيْرُ مَا كَانَ يَحْلُمُ بِهِ مِنْ قَبْلُ، رَأَى كَأَنَّ وَحْشًا كَبِيرَ الْحَجْمِ، أَسْوَدًا، وَجْهَهُ بَرَّاقٌ جَمِيلٌ مِنْ جَانِبٍ، وَقَبِيحٌ ذَمِيمٌ مِنْ جَانِبِهِ الْآخَرَ، أَقْبَلَ هَذَا

الوحش على حديقة الحيوانات، بدأ الضجيج والهلع في قلوب الحيوانات جميعاً، أخذ يسحق كلّ من يقف أمامه، مهدداً تارة، وصافعاً تارةً أخرى، أقبلت إليه مجموعة كبيرة من الحيوانات كالنمر والفهد ومن هو قريب القوة منه، يتوددان هذا الوحش ويأخذان الأمان منه، ضمهم إلى جانبه وجعلهم خلفه، وبقيت الحيوانات الفقيرة كالحمار والبعير ينظران ولا أمل إلاّ بأن يمضيا على ما مضى صحبهما، كانت النظرات نحو الأسد ماذا سيفعل وإلى أين سيميل؟ فهو مخيّرٌ بين أن يكونَ مع الوحشِ أو ضده وعليه أن يحسّم أمره، نظرَ الأسد إلى من حوله فرأى هؤلاء الذين عاشوا بحمايته كيف تركوه وحيداً، هناك قرر ألاّ يكن مثلهم، وأبى إلاّ أن يبقى على سجيته لا يجيد عنها، وأعلنت المواجهة غير المتكافئة، أوعز الوحش إلى صغار وجبناء هذه الحيوانات أن ترمي الأسد بكل ما تستطيع منه، أخذت تتراشق عليه الضربات الموجعة، أعياه الركض واتقاء الضربات، كلما انقضّ عليهم ليفرقهم ويبددهم إلاّ واجتمعوا كلهم على رميه وضربه، عندها وقفَ متعباً، بالكاد يجرُّ النفس، الدم يقطر من كل جوانبه، أخذَ يحدقُ بما حوله، رأى أن يحكم عقله للخلاص من هذا المأزق، خطرت في عقله فكرة أن يعلن المصالحة مع الأسد ليقصص أولاً من هؤلاء الذين مالوا مع الرياح وتكروا لعظيم آلاءه عليهم طوال سنينٍ طوالٍ وهم تحت حمايته ومن مائدته يأكلون، بكبرياءٍ واضحٍ، وبنظراتٍ ملؤها الاستحقار، وبقامةٍ مرفوعة، ولسانٍ يتكلم بكل ثقة

يقول مخاطباً الوحش: تعال لتتفق معاً، ونقتسم هذه الغابة، حتى نكون أقوى، ولم يستطيع أحد أن ينال ملكنا هذا.

— الوحش بكل فرح، نعم، بكل سرور

— الأسد، ولكن، لتتفق على نصيب كل منا

— بالطبع، لا بد أن يحصل هذا .

وقفت الحيوانات التي كانت اعتدت على الأسد مذهولة، تتساءل فيما بينها ماذا سيفعل الأسد بنا بعد أن تصالح مع الوحش؟

الهلج والقلق هما الهيئة التي اتصفت الحيوانات الأخرى بها، نظر الأسد إليهم ملياً، كعادته بكل شموخ، أخبرهم بأنه سيعود إليه قريباً، ولن يغيب طويلاً حتى يعود إليهم جميعاً، أصخوا السمع جميعاً، ارتبكوا بماذا سيصنعون وإلى أي أرض يهربون؟

أخذ الخوف كل ماخذ منهم، بدأوا يفكرون ماذا سيحل بهم إن عاد الأسد من غيبته، لم يعرفوا الراحة والسكينة، أخذوا يعدون اللحظات لمفاجئة قادمة لن تسرهم، بقوا على الوتيرة نفسها، يستعدون ليوم لا يحمدهم عقباه، الأسد هناك منشغل بتضميد جراحاته، لما استعاد عافيته، ورجع إلى صحته، قرر أن يخرج من عرينه، ذهل مما رأى، مضى يشق الطريق فيجد كل أولئك الذين

انقلبوا ضده قد سقطوا، النوبة القلبية قتلهم جميعاً، لأن القلق والرعب الذي
بنه الأسد فيهم جعلهم يقتلون أنفسهم بأنفسهم، هنا ابتسم، وأخذ نفساً
طويلاً ومضى .

وصل إلى الوحش، وجده متنعماً بمُلك وخيرات الغابة أثناء فترة غيابه، لم
يكن يعلم أن الأسد سيعود بكلّ هذه الحيوية والنشاط، كأنه لم يُجرَح ولم
يُصب بأيّ مكروه! عندها نظرَ الأسد إلى الوحش بعنف وغضب، زئِرَ
الأسد بكلمةٍ واحدةٍ لا غيرها ...

أخرج...

الكلمةُ كان لها دويّاً مرعباً، أسقطت الوحش أرضاً على قدمي الأسد،
يتودد، يترجى، يلخّ في أن يبقى خادماً عنده، بابتسامةٍ ممزوجة بنظرةٍ
استحقارٍ وذل، سأذهب لتناول وجبةٍ افطاري وسأعود إليك قريباً.

لم يلبثُ الوحشَ حتى رأى أن الأسد مضى خطوة واحدة، حتى أخذ الوحش
يعدو مسرعاً هارباً إلى خارج الغابة، أكمل الأسد طعامه وعاد ليجلس على
كرسي ملك الغابة فوجد أن الفوضى والخراب قد عمّ في الغابة أثناء فترة
غيابه، هذا إمتحانٌ صعبٌ عليه، كيف سيصلح ما تراكم من كلّ هذه
الفوضى والفساد؟

أرادَ أن يرى طريقة الأسد بإدارة هذه الغابة وإصلاح الخراب الذي إنتشر فيها، لكنَّ قطرات الماء التي سكبتهَا أمه على وجهه قد أفأفته، غضبَ على أمه لأنها أفأفتهَا من هذا الحلم الذي أراد أن يكمله حتى النهاية ليعرف كيف سيدير الأسد هذه الغابة؟ وكيف سيبدأ بالإصلاح ومن أولى الإصلاحات التي سيطبقها؟ وهل سيستحدثُ قوانينٍ جديدةٍ لمملكته التي ينخر الفساد والخراب بها؟

أمه حرمتُهُ من معرفة كنزٍ لا يقدرُ بثمنٍ، لكنه ذهلَ عندما أدرك أن الوقتَ عصراً وأنه في حُلْمٍ وليسَ واقعاً، نهَضَ والتشأومَ بإدٍ على وجهه، كأنَّ الوقتَ عصراً، خرجَ من البيتِ لأنه سأمَ هذه الجدران التي سجنَ نفسه بينها خلال فترة إمتحاناته النهائية.

ذهبَ سيف إلى صديقه مرتضى ليشكو له ضيقه وحالة الإحباط الكبرى التي تعتريه، ملَّ الدراسة وملَّ الامتحان وأنه قرر ألا يؤديَ إمتحان الغد، عقله لم يعد يستوعبُ أية معلومةٍ تدخلُ فيه، أرهقته كمية المعلومات التي ضخها في دماغه خلال فترة الامتحانات، أراد مرتضى أن يخففَ من حدة الألم على سيفٍ فدكره بطموحه في دراسة الماجستير والدكتوراه ليبدأ بكتابة البحوث والكتب الطبية، وأنهما كثيراً ما ترددا على المكتبات في بغداد والنجف والبصرة ليقننا الكتب، كان سيف يقنني الكتب الطبية، ومرتضى

يكتبُ في السياسية والاجتماع وينظرُ في القانون والسياسية ليوضح للناس أنَّ السياسيةَ فنٌّ يجبُ أن يمارسَ بكلِّ مهنيةٍ وصدقٍ ونبوغٍ، وسيأتيه رجالُ السياسية والدولة لينتفعوا منه ومن نظرياته في الفكر السياسي والاجتماع، لا بدَّ أن تتحلَّى بالصبرِ والقوة، أيعقلُ أنت ذلك الشابُّ الذي يتمنى الجميعُ صحبته وخلَّته! ما هكذا يا سيف تكسرُ وفي آخرِ إمتحانٍ لك!

لنذهبَ إلى مسجدِ الكوفة ونزورُ وبعدها نذهب لنأكل الفلافل ونشرب الميرندا التي نحبها مع لفة الفلافل، مضيا معاً، أدى كلُّ منهما الزيارة ومراسيمها، جلسا في باحةِ مسجد الكوفة الواسعة.

وفي زيارةٍ أخرى لهما بعد أربع سنواتٍ تذكرا فيها الكثير من المواقف، مرتضى يتأمل في قطعةِ المرمز المكتوبٍ عليها، دكة القضاء الكائنة في صحن مسجد الكوفة، هو يعرف أن هذا المكان بحسبِ المروي في الكتب التي اطَّلَع عليها تعود وترتبط بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مضى به الخيالُ إلى تلك الأيام، أخذ يستحضر المصطلحات التي درسها وتعلمها خلال أربع سنوات في كلية القانون، أوّل ما تبادر إلى ذهنه وجرى على لسانه مصطلح، العدل، الحرية، الحاكم، الديمقراطية... تساءل في سره، لم نشرقُ ونغربُ بحثاً عن النظريات وبين أيدينا إرثٌ كهذا! مما صحَّ أو لم يصح فنحن نرى أنه منهجٌ أقرب لترتيبِ نظامِ الحكم وترتيبِ العلاقة بين المسؤول

والرعية، لكن هل يا ترى تنطبق تلك النظريات بخدافيرها أم تحتاج إلى تعديلٍ
يواكب حياة الناس في هذا الوقت وليس أن ننقل القول بالنص لنطبقه بذات
النص أيضاً .

أخذنا يسترجعان بذاكرتهما إلى الماضي المؤلم الذي عاشه كلٌّ منهما، بقيا حتى
شعرا بضيق الوقت، نهضا وقد طردا كل القلق الذي أصابهما جراء التفكير
فيما لا ينبغي أن يفكرا به.

كانت عائلة سيف مكونةً من أبوين وأختين وهو خامسهم، أخواته أكبر
منه، متزوجاتٌ ولدى كل واحدةٍ ثلاثة بنين، والده كان كثيراً ما يثير حفيظته
ويذكره على الدوام بفشله وخيبته، سواء بالعمل أو الدراسة، كان والده يعملُ
صاحب معمل للسيراميك الأرضي، كان شخصيةً متعجرفة، مما جعل من
تربيته لسيف تنحو منحى آخر.

عامٌ وآخر وعامٌ، تخرجتُ من الجامعةِ بصفةٍ مُحللٍ مختبري، بقيتُ أنتظرُ اليوم
الذي ستزفه الوزارة لنا بأن تُطلقَ إستمارة التعيين المركزي الذي وعدتنا به كل
هذه السنين، لما لم تطلق الوزارة الاستمارة لجأنا إلى التظاهر أمام مبنى الوزارة،
كنا طلاباً من شتى المحافظات، الأجمَلُ أبي تعرفت على ثلّةٍ من بغداد
وكربلاء وكركوك والبصرة، تأصلت لي علاقة مع هؤلاء الطلبة، أصبحنا عائلة
واحدة وأنشأنا مجموعة نتواصل بها على برنامج الماسنجر، أخذت أعداد

الطلبة في تزايدٍ مستمر لكنهم يتلاشون في ساعةٍ نحتاجهم بها، بملابسٍ بيضاء، وبجوهٍ أنيقة، وبكلِّ أدبٍ، وقفنا نحن الطلبة والطالبات أمام مبنى وزارة الصحة، مجموعنا لا يتجاوز المائتين، ساعة أو بعضها حتى أقبلت إلينا قوات حكومية، هذه القوات لو اجتمعت على محاربة الارهاب لما بقي إرهابيُّ واحدٌ في غضون ساعة واحدة، لكنها هي الدنيا، علينا يتحولونُ أسوداً وعلى الاعداء أرانبا.

أخذوا يفرقونا بالعصي والمراوات، والماء الحار حتى الطالبات لم تسلم من العصي الكهربائية التي ضربونا بها، من يومها لم نعد للتظاهر أبداً، ومضى يوم وشهر وعام ونحن نعمل أعمالاً حرّة، منا من وجدَ عملاً يليق به ومنا من وجد ما لا يليق به ومنا من بقي يعيش على ما يجنيه من أهله وما أكثرهم فينا !

تعرفتُ عليه مصادفةً، أثناء تواجدي في رحلةٍ سياحيةٍ لمدينة بيروت وكانت أول زيارةٍ لي لبيروت، وجدته مندوباً للشركة السياحية العراقية في بيروت، استقبلنا بحفاوةٍ بالغة، وأخذنا إلى الفندق مباشرةً، من اليوم الأول توطدت علاقتي معه، لأني سألته عن أقرب مطعم، فمضى معي لأنه كان يعرف الأسعار المناسبة لشخصٍ مثلي، أخذني إلى مطعمٍ عادي يكون في طريق مطار بيروت، تبادلنا الكلام وبدأت علاقتنا تنحو منحى جديداً، إذ

أصبحت أجلس بجانبه عندما يأخذوننا في الباصات لزيارة الأماكن السياحية في شمال وجنوب ووسط لبنان، أخذت أسأله وكأني محقق، ضحكاً من كثرة الأسئلة ولكن عندما علم بأني كاتبٌ، أخذ يمدُّني بكلِّ المعلومات التي يعرفها عن كلِّ مكانٍ نقصده، سألته ماذا تعني صخرة الروشة، ومن تكن السيدة حريصا التي زررتها أمس، وماذا تكن مغارة جعيتا؟ لم يكن يعرف من المعلومات إلا بعض الأشياء البسيطة التي عرفتها أثناء البحث في محرك الكوكل، أخبرني وليد إنه من أهالي النجف، فقد ولد في بغدادٍ من عائلةٍ بغدادية، انتقلوا من بغداد إلى مدينة النجف لكن يبدو إن النجف ضاقت بهم ففرقتهم شر تفریق، أخبرني وليد بقصته فأبكاني وجعلني أتقرب له أكثر وأكثر فقال:

(٢)

في وسطِ عتمةٍ وحيرةٍ وذهولٍ من الأمرِ، خرجتُ أتلدُدُ باحثاً عن فرصةٍ نجاةٍ من هذا الذي خيَّم عليّ وجعلني مستسلماً لحالة الاحباط الكبيرة، الطرُق مزدحمةٌ، نظرات الناس لي تقلقني، أحاولُ أن أمضي إلى ذلك الذي جعل مني طعماً يسطاده التافهون ليضحكوا على أمثالي، تذكرت ذلك اليوم المشؤوم الذي أقبل علينا بسياراتٍ مصفحةٍ سوداء، هرعنا نحن أصحاب بيوت الطين والصفائح إليه مسرعين، نستجدي الذلَّ والمهانة، ركضنا نحو

ونحن نتزاحم لبيع كرامتنا ببطانيةٍ للعائلة الواحدة، استلمت كل العوائل تقريباً ولم تبقَ إلا عائلة جاري، ذهبت إليه موبخاً إياه، ليذهب لاستلام البطانية لكنه هزَّ يده ورمى الباب بوجهي معلناً نفوره مني، لم ألح عليه، ولم أكرث لأمره مطلقاً، اجتمع المسؤول بنا في صيفٍ قائظٍ، لم نستطع أن نتحمل حرارة الشمس لشدة حرارتها بذلك اليوم، أخذنا نضع أغطيةً للرأس من الكارتون المرمي في المزابل لتتقي شدة حرارة الشمس، أخذ يخطبُ بنا خطباً رنانة في الترهيب والترغيب ما بين نظامٍ ولّي ونظامٍ أقبل، وأخذ يسردُ لنا مزايا النظام الجديد والديمقراطية التي كنا نحلّمُ بها في أحلامنا الوردية، قمنا بالتهليل والتصفيق لهؤلاء القادمين وكلنا أملٌ بهم لأنهم أبناء جلدتنا ومن رحم معاناتنا إلا أنهم يختلفون عنا بأنهم لم يتحملوا عذاب النظام السابق فهربوا إلى الخارج يطلبون اللجوء، بقينا نعاني من مرارة البؤس ما نعاني ومن الحرمان ما هو أشد وأقسى، إلا إننا صبرنا وصابرنا حتى كان الفرج الأكبر على يدِ قوةٍ كبرى اقتنعت بالتغيير، سارعَ شُدادُ الآفاق إلى التملق والزحف لاستجداء عطف الاحتلال لتعطي لهم بعضاً مما لم يحموا به في كل سنين حياتهم، كنتُ أنا من أولئك الذين لم يرحبوا بهذه القوة الجديدة لأني أخذت أتغنى ببعض الكلمات التافهة مثل، الوطن، الشرف، الأمانة، النزاهة.. هذه الكلمات لها وقعٌ في النفوس العراقية الجديدة إلا إنها لم تعد كلمات ذات معنى بعد أن دنسها صناع القرار وأصحاب الزعامة.

الألم والسعادة هما اللذان فرضتهما الطبيعة علينا، والقرار يعود لهما، تارةً يكون الألم هو السائد وتارةً تغلبه السعادة، نحن البشر نتكيف لهذا تارةً وطوراً لذلك، لم أنس ولن ينسى أخوتي وأمي حادثة مقتل والدي على يد مجموعة من المسلحين، كانوا يستقلون ثلاث دراجات نارية، حالما رأوا والدي وهو جالس في دكانه الصغير، حتى رموه بأكثر من عشرين طلقة، لم يكتفوا بالطلق الناري بل نزلوا إليه ليمزقوا جسده بالسكاكين نكاية به لغاية نفسية كانت في داخل نفوسهم، كان أبي وحيداً في الدكان لحظة مقتله، سمعت الطلق الناري فهرولت إلى والدي فرأيت ما يشيب لمنظره الرضيع! لم يبدر مني أي رد فعلٍ ما، بل اكتفيت بالذهول والصمت الذي يكاد يخرسني، اجتمعت العائلة المكونة من ثلاثة أولاد وبنت واحدة وأمي هي التي تصرخ وتولول على زوجها، هذا المنظر لم يغب عن ذاكرتي من عشر سنوات مضت، هذا اليوم هو ذكرى تلك الحادثة الأليمة التي ما زالت آثارها تلاحقني حتى اليوم وربما ستبقى تلاحقني إلى الأبد، بقيت عقدة الثأر لأبي تصاحبني في نومي ويقظتي، وأشتهي أن أتلدذ بفعل المثلي بأولئك الذين قتلوا أبي تلك القتلة القاسية، لم أكن أعرف أن أبي كان هارباً ومتستراً عن الجميع لأنه قتل شخصاً ذات يوم بسبب شجارٍ حدث مع شخصٍ في حينها، اتخذ والدي النجف مسكناً له ومأوى، أخذتنا أُمي إلى بيت جدي لنبقى به هذه السنوات العشر، تاركين البيت بكُلِّ ما فيه لنبعد شبح روح أبي عن البيت

كما كانت تقول أُمِّي، طلبت منها أن تقص عليَّ سبب هروب والدي من بغداد، حاولت أُمِّي أن تُغيِّرَ الموضوع لكنَّ اصراري وإلحاحي كان أقوى.

يولدُ الإنسانُ ضعيفاً ويعيشُ ضعيفاً ويموتُ ضعيفاً، حتى السلاطين والقادة والحكام ضعفاء، الأقدارُ تُكتبُ على الإنسان منذ أن كان نطفةً في ظهر أبيه، ولما يخرجُ إلى الحياة لا يجدُ غرابة في كل ما يرى أمامه، كأنه أبصرَ هذه الحياة من قبل، لا أعلم ماذا جنيت حتى أعيش الذل مع أخوتي كل هذه السنين، أُمِّي تركت بيتنا وذهبت إلى بيت جدي ربما كان قراراً صائباً لها وبالأخص وهي امرأة لما تبلغ الثلاثين بعد عندما تركت بيتنا لكنه كان بداية الذل التي قضيناها في هذه السنوات العشر، لا يوجد بيت يظلك دون مئة إلا بيتك، كانت أُمِّي تتحاشى أيَّ شيء يصدر منا، كنتُ جباناً إلى أبعد حد، رُبيت على ألا أنطق، لا أفعل، وبقيت هذه لا الناهية تلازمي في كل قرار وفعل، رفضت أُمِّي كل إغراءات أهلها في أن تتزوج مرةً أخرى، ووطنت نفسها لنا، وتركت كل مُتَع ومباهج الحياة، كانت وظيفتها معلمة مما سهل عليها أن تتكفل بنا وتصرف علينا من مالها الخاص، لم تقبل أن تأخذ من جدي أو خالي أيَّ شيء، كان راتبها الشهري يكفيننا أن نعيش، وها نحن نعيش ولا نملك إلا راتب أُمِّي الشهري، رفضت أن نعمل أيَّ عمل، طريقُ الدراسة لا غيره، كانت تقول: إذا حصلتم على العمل ربما أغراكم المال الذي تحصلون عليه بأنه خيرٌ من الدراسة، كنتُ أسمع من خالي يقول: إذا أرادوا

أن يسخروا من شخصٍ قالوا: لا عتبَ عليه فهو تربية امرأة! إنهم يحتقرون أن يقالَ عنهم تربية نساء، لأن الرجل يجب أن يربيه رجلٌ مثله وتلك كانت قناعتهم.

خرجت النتائج وأقرت أني من الأوائل على الجامعة، كانت الوزارة قد أقرت أنها سترسل الطلبة الأوائل إلى فرنسا لينالوا هناك شهادة الماجستير، رتبْتُ أوراقي ومعلوماتي وذهبت للتقديم، وجدت أنهم اشتروا شروطاً تعجيزية، كدتُ أعدلُ عن فكرة البعثة والدراسة لما وجدت في معاملتهم من قسوة روتين ممل وخانق، لولا أمي لما بقيتُ متحملاً تفاهة هذه المعاملة التي كلفتنِي شهرين من التتبع والترحال ما بين بغداد والنجف، لأن هويتي الشخصية في بغداد وجامعتي في النجف، بعد التي واللُّتيا أكملت كل المعلومات التي يحتاجونها وسلمتهم المعاملة كاملة وتركت عندهم رقم الموبايل ليتصلوا بي إن استجد لهم شيء ما أو أرادوا مني شيء آخر.

يومٌ يا لهُ من يوم، لشدةِ هولهِ لم أتحمّل أن أستجمع قواي، عندما عبرت زوجة خالي أمي بأن زوجها قاتل ومجرم وذهب لينالَ جزاءه نار جهنم وبئس المصير، كانت زوجة خالي سليطة اللسان، مهذارة، ليس لها حياء، وكثيراً ما عرضت نفسها عليّ كأني طفلٌ لا أعقل ولا أثار، ولا تعلم أني تلذذت بها واشتهيت أن أرتوي من معينها، وكثيراً هي المرات التي صادفتها بملابسٍ لا

تستر إلا بعض أعضاء الإثارة فيها، هذه المرأة المتمردة قد أساءت لأمي ووبختها، لم أعد أملك الصبر حتى انطلقت كعاهرةٍ مع مجموعةٍ من قريناتها، أخذتُ أرميها وأذكرها بكم هي المرات التي دعيتي لنمارس ما يمارسه الزوج بزوجته ولكني رفضت وسترت، توقعت أن عينها ستكسر، ورأسها سيخفض، إلا أنني فوجئت بأنها أخذت تمارس دور المكسورة الشريفة التي عُيرت بشرفها وشرف زوجها وأهلها، دخلَ خالي فارتمت تحت قدميه وهي تُلحَنُ وتفخم وتزيد من الكلام، أثارته وأشعلت نار الغيرة والرجولة المختفية فيه، أخذَ يستجمع قواه وغيرته التي لا يعرفها ولا تعرفه، انحال عليّ وعلى أمي بالضرب المبرح، وأخذ خشبةً كبيرة ولوح بها، كنتُ أظنه سيكتفي بهذا حتى ضربني بها، سقطت والدم يشخبُ مني، ارتقت أمي على صدري، محتضنة إياي، صارخة، نادبة، معاتبة، مكلومة، صرخت بأعلى صوتها ومن لحظتها قررت العودة في الحال إلى النجف، حيث بيت زوجها، وموضع كرامتها، وأنها لن تُذل ولن تُهان ولن ترضى أن يعيشَ أبناؤها تحت رحمة أحد، كان الوقتُ مساءً، أخذتني إلى ممرضِ المنطقة ليضمّد هذا الجرح الكبير، وأعادتني وقد أشرت لنا عشاءً من الكباب والفواكه والعصائر، رجعنا وقد تدخل جدي ولكن دون أن يتمكن من إقناع أمي، وعند الصباح عدنا إلى بيتنا في النجف، كانَ موحشاً، إلا إننا حالما وطئت أقدامنا عتبة الباب حتى استنشقتنا عبير الكرامة، أخذت أمي تحفزنا أن نساعدنا لترتب

ما جلبناه معنا في البيت، كانت أمي موطنة نفسها لهذا اليوم، كانت تشتري الكثير من الحاجات ولما نسألها لماذا اشترتها نقول: لاحقاً ستعرفون .

يلجأ المرء إلى حيلٍ ملتويةٍ ليخففَ وطء الأذى الذي يعاني منه، تارةً تكون هذه الحيل مجبذةً وطوراً تكون مما تأنف منه النفوس الطيبة، الحيلة هي طريقة التوائية مخادعة، كل البشر لا بد أن تكون مخادعة في طور من حياتها أو كثير من مواقفها وإلا فالحياة هي هكذا، أمضي إلى بيت خالتي المتزوجة هنا في النجف، لأني استأنس بصحبتى أبناء خالتي وبالأخص علي الذي نتقارب في كثيرٍ من الأشياء، فرح بأننا سنستقر في بيتنا، أن تجد خلاً لك لهي عملية يُراد لها قسطاً كبيراً من الحظ!

كانت أمي تتلصص خيفةً أن توفظنا، وتبدأ بتحضير افطار الصباح لنا، كنتُ أكره وأعاني من عقدة أن تكونَ أمي هي رجل البيت وليس أنا، وبقيت هذه العقدة تلازمي حتى الآن، ولم أكن أعرف أن أمي مدعاةُ فخرٍ لنا، هذه المرأة التي وضعت نفسها خادمة لنا ولم تجعلنا عبئاً على أحد، كانت كريمةً النفس، لم تقبل أن نعمل أي عمل لأنها لا تريد منا أن نخرج من بين يديها وبعيدين عن نظرة عينيها.

ذاتَ مساءً، أقبلت إلينا خالتي ومعها أولادها الأربعة وبناتها الوحيدة، حالما وقعت عيني على ابنة خالتي وكان اسمها شمس وأقسم إن هي إلا شمس بحقٍ

وحقيق، كانت في ربيعها التاسع عشر، بيضاء كالحليب، رشيقةً أنيقة لا تميلُ إلى الضعفِ أو السمنةِ بل تتوسطهما، طولها لا بالطويل ولا بالقصير، لها ابتسامَةٌ كأنها منظرٌ طيرٍ في حديقةٍ غنّاء وقد ارتوى وحلّق في الفضاء، نظراتها توقظ مشاعراً وتحي أحاسيس، أرقبها بين الحين والآخر عليّ أحظى بنظرةٍ وِدٍ منها، لم أعرف من البنات إلهاءاً، ولم أضاجعُ من النساء إلا قليلات وفي خيالي فقط، لعلّ خيالَ المراهق لا يوقفهُ شيء، من حسنِ الحظّ أنهم قضاوا ليلتهم عندنا، لم تنقطع النظرات فيما بيننا، لغة العيون كانت هي لغتنا، لم أجروا أن أصارحها بحبي لها وشغفي وولعي بها، كنت جباناً في كل شيء وهذه لها قصص كثيرة في حياتي .

انتظرت الشهر والشهرين والثلاثة ولا أملٍ من اتصال الجامعة بي، ذهبت لأستفسر عن الأمر، فوجئت بأن البعثة قد مضى على ذهابها أكثر من أربعين يوماً، دُهلّت من الصدمة، وكيف تمت؟ لماذا لم يخبرني أحد؟ أخذ صوتي يرتفع على الأساتذة حتى اضطروا إلى طردي بطريقةٍ لا تليق وحرّم الجامعة، خرجتُ مهزوماً، خابت آمالي، كأنما ذهبت في مهب الريح، لا أعرف أن أذهب وأمي تنتظري لأزف لها البشارة، أخوتي كانوا ينتظروني في بداية الشارع ليأتوا بخبر قبولي البعثة إلى أمي وينالوا ما وعدتهم من مكافئة، أحبُّ أمي لدرجةٍ أيّ أريد أن أفرحها بكل ما أستطيع، كيف وقد خابت آمالي وذهبت كما يذهب الحلم.

دخلتُ شارعنا، تباشِرَ أخوتي الصغار بالركضِ نحو البيت يتسابقون لينالوا
البشارة، لم تمهلهم حتى أصل إلى البيت بل أعطتهم فور دخولهم عليها
مهللين فرحين، دخلتُ إلى البيت ورمقتها بنظرةٍ ملؤها الانكسار والخيبة،
وضعت يداً على قلبها وأخرى على فمها، اقتربتُ منها وارتميت بحضنها،
بكت فبكيت لبكائها، ونشجت فنشجت لنشيجها، لطمت وجهها
فلطمت وجهي، أنبأتها بأن الجامعة قد أرسلت الطلبة منذ أربعين يوماً، ولم
يكن أسمي من بين الطلبة، أخذت أُمي تجرُ رداء الخيبة، لكنها نُحضت
وكفكت دموعها ودموعي، وأعطتني جرعة من الأمل، نصيبك يا ولدي
هذا .

(٣)

لا يستطيع المرء أن يتحكم بقدره وبمصيره فهو ضعيفٌ وأنى للضعيف أن يخطأ بيده قدره ومصيره، في دوامةٍ كبيرةٍ من الحيرة، وفي حظوظٍ تعيسةٍ ترافقه يقرر أن ينزل إلى الشارعِ باحثاً عن فرصةٍ للعملِ، لا يعرف أن يعمل أي شيء، فمن يا ترى سيقبل أن يجد له عملاً وهو لا يعرف شيئاً!

قررتُ أن أذهبَ إلى محلِ الخبزِ لأطلب منه أن أعملَ، رحبَ بي وأخبرني بأني سأبشر معه من يوم غد، لاحت علامات البشر والفرح عليّ، رجعتُ لأمي وأخبرتها بأني من غدٍ سأذهب إلى العملِ، أخذت تمطرنى بوابل من النصائح، ما زلت يا سيف صبيّاً في عيني وستبقى حتى تتزوج، ابتسمتُ لهذه الكلمة، أخبرتها بأن العروسة موجودةٌ، تبتسم أُمي بدهشةٍ تطلع، ومن هي؟

— شمس بنت خالتي

— تضحك ملاً فمها، وقالت: أنعم وأكرم بها وبأهلها

— لكنني محتاجُ المزيدَ من الوقتِ لأستطيع الزواج، لذلك سأجلب لك كل أجرتي لتجمعها لي .

— نعم يا قرة العين، وفقك الله وحقق كل طموحاتك يا حبيب أملك وروحها

كانت الأيام تمضي تباعاً، فقد تعودّ جسدي التعب وصرْتُ لا أخشى الفقر، شعورٌ جميلٌ لا يضاهيه شعور عندما أعود إلى البيت وبجبي أجرتي، لم أعد أطلب من أمي شيئاً، صرْتُ أخجل منها كوني أصبحت رجلاً وعلني تقع مسؤولية هؤلاء، آن الأوان لأمي أن ترتاح من الكد والجهد الذي بذلته طوال هذه السنين التي مضت.

يولدُ المرءُ خيراً ولا يعرفُ من الشرِّ شيئاً، فيعمد أبواه والحياة إلى زرع الشر فيه، الولادةُ فطريةٌ بيضاء، إنّ أوّلَ من يلوثُ براءةَ الطفل هي أمه وذلك بما تعلمه وتغرز فيه من الحياة، الله لا يعبأ بخير أحد ولا بشره، هو متفرّدٌ صمدٌ لا شريكَ يؤنسَ وحدته ولا يستوحش فقده إن غاب، الله خلق الخلقَ وأعطى لهم الخير، والطبيعة خلقت الشر، الإنسانُ له ذاتٌ عليا وسفلى وهو واقعٌ بينهما يتأرجح في هذه تارة وتلك تارة.

يعودُ صديقي من سفرته السياحية التي قضاها في تركيا، أقبلتُ إليه ليقص عليّ من أمر سفرته ما رأى، كنتُ منبهراً كيفَ الرحلة غيرت من طباع شخصية ورؤية صديقي حول الحياة والكون وحتى الدين، بينما هو يتكلم وأنا أسمعُ وأصغي بتأنٍ وإعجاب واضحين على محياي، كان صديقي يقصُ عليّ كيف قضى ليلاليه الحمراء هناك، وبعض المواقف التي حصلت معه، التي لا تعدو أن تكونَ أغلبها يخص الجنس والخمر والطبيعة، هذه الأمور أثارتني

وأنا الطالع من جحيم كبير، كان حرف ال (لا) يصدح في أذني أينما عرض لي عارضٌ ما، أتجنب كل شيءٍ لئلا أثير غضب وسخط أُمي عليه، صديقي ذهب إلى تركيا بصفته مندوباً للشركة السياحية، طلبت منه أن يجد لي عملاً معه في هذه الشركة، أخذ يطمئ بشفتيه وبكلِّ غرورٍ وعدني بأنَّ يسعى لأجلي.

بعد ثلاثة أسابيع يتصلُّ بي ليخبرني أنه وجد لي عملاً في شركةٍ سياحيةٍ، فرحتُ كثيراً لهذا الخبر، العمل في المخبز أرهقني ولم أقبله إلا على مضضٍ، لأنني بحثتُ كثيراً فلم أجد عملاً يحتويني دونَّ منةٍ أو ذلةٍ، فرحتُ بهذا العمل لأنه سيوفر لي مزيداً من الوقت لكي أرتب أموري وأعد العُدَّة للدراسات العليا، التمسْتُ في هذه الشركة مزيداً من التقدير الاجتماعي الذي أستشعره وأحتاجُ إليه، كان دعاء أُمي سلوتي في كلِّ خطوةٍ أقدمُ عليها، لم أخرج عن طورها ولم أخالفُ لها رأياً، باشرتُ في العمل مباشرةً، استقبلني صاحب الشركة بإسلوبٍ ينمُّ عن محبةٍ وطيبةٍ، أخذت أصغي وأنتبه لكلِّ شاردةٍ وواردةٍ تتعلق بالعمل، جعلت صاحب الشركة يميلُ إليَّ بوقتٍ قصيرٍ، يوماً بعد آخر حتى أثبتُّ له بأني كفؤٌ في أن يعتمدَ عليَّ ويوكل لي إدارة الشركة بغيابه .

تدخلُ إلى الشركة بغرورٍ واضحٍ، لا ترمي السلام على أحدٍ، وجدتني أمام شاشة الحاسوب، سألتني عن أقرب رحلةٍ إلى لبنان، أخبرتها بأن أقرب رحلة

ستكون غداً في العاشرة صباحاً، أعطني جواز سفرها ومبلغ الحجز، خرجت وقد أثارت فيّ كثيراً من الرغبة فيها، كبرياتها وشخصيتها أثارتني لكني انتبهت إلى صوت صاحب الشركة قد دخل، صرفت ذهني عنها وعدتُ إلى رزاتي المعروفة، يوماً بعد آخر تعرفت على أشياء لم أسمع بها ولم تخطر ببالي كطيفٍ عابرٍ حتى، كانت صورة شمس لا تفارق مخيلتي كلما مرّت بي إحدى المثيرات، أتذكرها وأقارن بين أنوثتها وبين اللواتي يقبلن عليّ مصباحات أو ممسيات، أوصلتُ المسافرين إلى المطار وتأكدتُ من حضورهم وركوبهم الطائرة لتنتهي مهمتي عند ذلك، وفي المطار الآخر يكون مندوبٌ للشركة يستقبلهم ويتكفل بهم، شمس بنت خالتي لديها من المواصفات ما جعلني لا أرحح عليها أي امرأة، أريد أن أجد عملاً يمكنني من الاستقلالية عن أمي، الرغبة قد ترهق المرء أكثر من العمل، لديّ طموحٌ ورغبة في أن أرقى إلى منزلةٍ تليق بيّ ولكني أجهل السبيل إليها .

يومٌ لم أنسَ صدى وقعهِ في النفس، ولم أنسَ كيف شرح صدر أمي وأبكائها، عندما زففتُ لها نبأ حصولي على درجةٍ وظيفية في ذات الجامعة بوصفي من الطلبة الأوائل، كانت هذه الوظيفة كأنها طوق نجاة من غوائل الزمن وتقلباته، الوظيفة أصبحت هي الحلم الذي يحلم به مواطنو البلدان التي فشلت أنظمتها السياسية في إدارة البلد اقتصادياً، أصبح الشعب عبئاً على الدولة وأمست الدولة عبئاً على نفسها، لا يهم .. المهم أنني قد نلت ما

أستحقه ليضمن لي الفرصة التي لن أجوع بعدها أبداً، طرثُ فرحاً ورقصتُ مرحاً بما رزقني الله تعالى، من أوّل صباح الغد باشرت إلى الجامعة لأعد أوراقِي ومعاملتي، يعرفون أني طالبٌ عندهم لأربعِ سنوات وما زالوا يرهقوني بالمعاملة المشؤومة، إذا أردت أن تراجع دائرةٍ من دوائر الدولة عليك أن تُحضر أوراق وهويات أقاربك الأحياء والأموات وأن تأتي بشهود عدول يثبتوا معرفتهم بأنك تسكن في هذه المدينة وهذا الحي!

باشرت بذات اليوم، دخلتُ إلى قاعة الدرس الذي كنت أدخله طالباً واليوم أستاذاً، قمت بتنظيفه وتلميعه، حتى يبدو أنيقاً، كنت أتوق لمعرفةٍ كثير من خصائص الفكر القانوني وكيف يحلل ويأتي بالنظرية القانونية، ولما أسأل أستاذي لا يعطي جواباً شافياً لنهمي في المعرفة، ذات يوم بينما كنت طالباً سألت أستاذي:

__ أستاذ مِم يتكون الماء؟

__ مكون من H₂O

__ لو جلبنا H₂ من جانب، وجلبنا O من جانبٍ آخر هل يمكننا أن نضع الماء؟

__ رماي بنظراتٍ تقطر شزراً، بانث علامات الغضب على كل ملامحه، طردني ومن يومها كرهني وكرهته، وأنا الآن سأشاركه في المختبر.

كان هذا السؤال هو بوابة حيي إلى للمعرفة، أخذت أكثر من الأسئلة التي تشغل فكري وخيالي، لم أخجل من طرح أي سؤالٍ يراود مخيلتي، كثيرٌ من الأساتذة غضبوا مني لأني أثير مسائلٍ لا يعرفونها مما يسببُ احراجاً لهم أمام الطلبة، كانوا يظنونُ بي سوءاً أني أتعمدُ إثارة هذه الأسئلة لأخرجهم لكنهم ظلموني وما كانوا يعرفون! لجأتُ إلى الصمتِ لأتجنب إثارة أي مشكلةٍ مع أحد، يكفيني أني سأبحثُ بنفسي وأتعلمُ بالتجربة، وهل قامَ العلمُ إلا بالتجربة!

وفرت لي الوظيفة استقراراً مالياً ومركزاً اجتماعياً مقبولاً إلى حدٍ ما، ولكنها جعلتني أسيراً لقوانين الجامعة والوزارة التي لم أنفك بنقدهم في كلِّ محاضرةٍ ألقيتها على الطلبة، لم أقبَلْ بالمنهج ولا بالطريقة التي تُدرس بها المفروضة علينا فرضاً، المنهجُ لا يرقى للمرحلة الجامعية المتخصصة، عبارةٌ عن نظريات نقلها حرفياً من المراجع الغربية، ليس لنا إلا قراءتها وحذف الكثير من أصل الموضوع ليتناسب مع أدمغة الطلبة ودرجةٍ وعيهم، صارَ الاستاذ عليه أن يحذفَ عند كل عام من المنهج ما يروق له لطفاً وتحنناً على طلبته الذين سينالوا الشهادات ولم يفهموا مما تعلموه إلا معلوماتٍ ساذجة بسيطة، أتاني إنذارٌ من قبل رئيس الجامعة أن أكف عن هذا الكلام، كانوا يفرضون عليّ أموراً تأنف نفسي قبولها، أخيرُ نفسي بالوظيفة وغيرها فأجد أن الوظيفة هي أنسب عمل للشخص، أحتار في قبول هذا الصندوق الذي وضعوني فيه، لا أطيق، مللت، حتى أعلنتها ذات يوم وفعلتها.

كتبتها بخطٍ عريضٍ أنيق، وبكلِّ كبرياءٍ، أوضحت ما أريد، ولم أحترم شهادة أحدٍ منهم، ولم أعطِ لقباً لا يستحقه لأيٍّ منهم، اكتفيت بأن قدمت طلب إنهاء وظيفتي من الجامعة، أقبلت إليَّ الموافقة والقبول مباشرةً قبل أن أجلسَ على الكرسي، كنتُ أظنهم سيسألون عن السبب في ذلك لكنهم فرحوا بقراري هذا وارتاحوا من لسانٍ لم ينفك يوماً عن نقدهم.

خرجتُ كالطير محلّقاً في فضاءاتٍ واسعة، بعد أن أطلقت العنان ليديّ أن تأخذ حريتهما من القيد الذي فُرض عليها فرضاً، كانت مُدتي هي نصفُ عامٍ لا أكثر، لم أتحملهم ولم يتحملوني، كسبتُ نفسي وخسروا ضميرهم، من حسنِ حظي أن صاحبُ الشركة ما زالَ بحاجةٍ لي مما خففَ الضربةَ عليّ رأسي نتيجة خسارتي وظيفتي، عدتُ إلى العمل الحر الذي تأنفه الفقراء ولكنهم نسوا أو تناسوا حريتهم.

الأملُ نورٌ ينبثق في النفسِ الطامحة ذات الطاقة الإيجابية التي لا تستسلم لأيِّ ظرفٍ، أولئك الذين نالوا حظوة في الحياة لا بدَّ أنهم على يقينٍ بقدراتهم ومعرفةٍ بأنفسهم أكثر من غيرهم، الصبرُ شيءٌ جميلٌ ولكن أقسى ما يكون على النفس التواقة والشغوفة لإنتظارٍ ما، الحياةُ تميلُ إلى الجبان فتضعفه أكثر وتُهرب من القوي ولا تقاومه ولن تقف بطريقه لأنه يملك الكيفية التي يصارعها به، كأنَّ الجبانَ هو الذي يقتل نفسه بيده وذلك بركونه إلى الإحباط والخوف الذي يوسوس له من داخل نفسه.

(٤)

وادعةً ساكنةً، جميلةً جاذبةً، رقيقةً كالحرير، شفافةً كالماء النقي، تخالها بلا لون لسحرها وفي الحقيقة أنها تحتوي كل ألوان الطيف، كانت رحلته هي الأولى خارج البلد، حالما تُوكل إليه مهمة أن يكونَ مساعداً لمندوب الشركة هناك، أخبرهم بأنه مستعدٌ لأي شيء يُطلب منه، مما حببه إلى صاحب الشركة هو هذه الروح التي تود أن تعمل بكلِّ جدٍ وحماس، لا يتململ ولا يسأم أو يضجر من أيِّ طلبٍ يطلبه منه شخصٌ ما، يدخل بيروت كأنه زائرٌ قادمٌ من البعيد حيث لم يلحم يوماً في حياته أن يقصدَ مدينةً كبيرةً، دخلها بصفته مساعداً للمرشد السياحي لكنَّ الحقيقة دخلها هارباً من فشلٍ ظلَّ يلاحقه حتى بلغَ الرابعة والعشرين من عمره، تحت ذريعةِ السياحة بدأ يخططُ لشيءٍ آخر، كانت ملامح الضيق والضجر واضحة عليه فهو قد خسر الوظيفة التي كان يتوق لها، أخذ يرمق المباني ويرسم في مخيلته كيف الاستقرار هنا، في هذه السفارة كانت عائلة مصطفى الذي تعرف عليهم بصفته مندوباً من الشركة التي في النجف، تعلقَ بهم فور معرفته بأنهم ذوي منصبٍ رفيع في حكومة بغداد، أراد أن يزيد الوصلَ بهم لكن خوفاً من رفض أو طرد هؤلاء له قرَّر أن يجاريهم بتأنٍ وسياسة اللين.

كانت العوائل العراقية المترفة والفقيرة تهرب من جحيم الصيف الحارق لمناطقٍ أكثر برودة ، فالعوائل الفقيرة تذهب عند حافات أنهرٍ قدرة يقضون به بعض ساعات، أما العوائل المنعمة فإنهم يسافرون في هذه الأشهر إلى دول لها صيف جميل وجاذب، عائلة مصطفى المكونة من ثلاث بنات وأمهم ومصطفى الأخ الوحيد لهن، كان يرافقهن في أغلب سفرته إلا إنهن أردن أن يذهبنَ لأماكن نسائية لا يجذب وجود الرجل فيها، بقي هذا الفتى الذي يحمل من الدلال والترف قسطاً كثيراً، تقربت إليه لأني رأيتُه وحيداً، أمه أوصتني به، فهو لما يبلغ الثامنة عشر بعد، آثار النعمة واضحة بإفراط عليه، تقربت منه متودداً، صار قريباً مني، بل ما عاد يخرج مع أهله وفرحن بذلك، لأن لديهن أموراً هنَّ أعرف بها، أخذَ يحدثني عن عائلته، كان والده صاحب شركة مقاولات وذو منصب رفيع في الدولة لكنه لم يصرح به، أخبرته بأني أبحث عن فرصة عملٍ منذ مدة طويلة، قصصتُ عليه كل معلوماتي وأخذت أستميلُ مشاعره وأحاول أن أثير فيه العاطفة والحنو نحوِي، عسى أن يتوسط لي عند والده بمهنةٍ حرةٍ تليقُ بي، فلتكن أي مهنة في أي شركة من شركاته .

أن تجدَ لنفسك فرصة عملٍ في شركةٍ معروفة دولياً ومحمية بقانونٍ دولي لهي فرصة العمر أو حُلْمه! أخذت أتوسل بهذا الفتى الذي أرسلته السماء لي، وعدني بأن يُكَلِّمَ أباه، لم أكتفِ بمصطفى، أخبرت أمه وبكلّ خنوع توسلتها أن تخبر زوجها أن يجد لي فرصة في شركته هنا في بيروت، سألتني عن

تخصصي، فأخبرتها بأني محامٍ ومن الأوائل على مرحلتي، أعطيت رقمي لمصطفى وصرْتُ أنتظر وأنتظر حتى أتى اليوم الذي زُفت إليَّ البشرى لموعدٍ مقابلةٍ في الشركة التي تقع في منتصف شارع الحمرا في بيروت.

الفرصةُ تأتي على حينِ بغتة، فلا بدُّ أن يكون المرءُ مستعداً لهذه البغتة التي تمرُّ مرَّ السحاب، الصلاةُ هي نقطةُ إتصالٍ أفرقتها الأديان في ما أقرت لتجعل الإنسان يتصل بالربِّ بأوقات اليوم كلها، لو كانت الأديانُ كلها كاذبة ولم يبقَ شيئاً صحيحاً منها إلا الصلوات لكنها قد أدت للبشرية خيراً كثيراً، كان يواظبُ على أداء الصلوات الخمس وأخذ يزيد بأدائه النوافل، الاتصال بينه وبين أهله لم ينقطع، أخبر أمه بأنه وجدَ الفرصة التي لم يجدها في العراق، لذا سيبقى لستة أشهر حتى يسمح له أن يأخذ إجازة.

عُيِّنَ صديقي مرتضى في شركةٍ بصفته محامٍ للشركة، كنتُ أكثر منه فرحاً بحصوله على فرصة العمل هذه وبشركةٍ تقدر قيمة العقل وتسعى لتقديره، مرتضى يعرف ويدرك كل الأنظمة السياسية، كثيراً ما سألته أيُّ الأنظمة يصلح لبلدٍ مثل العراق، يختار كثيراً ويتأمل ليقول بعدها:

مصيبةٌ هذا البلد، بلدٌ وجوده مشكلةٌ كبرى في خارطةٍ مزدحمةٍ، كأنه حُشِرَ حشراً بمساحةٍ خانقةٍ، ربما تكونَ الاشتراكية الخفيفة وليست القوية هي التي تطبق في هذا البلد، أو الديمقراطية القوية التي يرجع لها الجميع مع مرجعيةٍ

قوية يعود الجميع إليها، الشعب العراقي الحقيقي هم فئة قليلة بالقياس إلى حجم الغباء عنه، إننا أقبلنا إلى العراق بعد أن رأينا الخير والبركة فيه، هكذا يصرح ويقول دوماً عن تبادل الأحاديث عن العراق وحالته غير المستقرة والتي لن تستقر يوماً، حتى تذوب الكثرة في القلة، أي يذوب الغباء داخل الأضواء، هذه نظرية قوية ولا يقبلها عراقي قط، فقال لي: يكفي أنها تمثل وجهة نظر صاحبها وكفى.

الدنيا تغلي وتمور بتيارات فكرية سياسية جديدة تظهر بألوانٍ مزركشة لا تعرفها الناس من قبل، هذه التيارات أصبحت تتنافس تنافساً غير نزيه على زعامة العالم، ولا بد لك عندما تزعم العالم أن تضع لنفسك اقتصاداً وهل الزعامة إلا التحكم في الاقتصاد! كانت الشركة تدرس خيارات عدة في رؤيتها للتجدد السريع الذي طرأ على الكون بصورة جد فظيعة، الاجتماعات الدورية التي تُعقد عند نهاية كل شهر لتُنظر بأمور الشركة وأرباحها ونتائجها وتمّ البناء والقياس على خطة تُقر وتدرس بعد اسبوع من هذه الجلسة، كانت النتائج تشير أن خلافاً سيمر على العالم ويحدث انقلاباً مهولاً في حياة ومصير شعوب كثيرة من دول العالم، لم تقصر أم مصطفى ولا مصطفى في أن يجدوا له الفرصة المناسبة في المكان المناسب، أُعطي غرفةً مجهزةً بأحدث الأجهزة والأدوات وكل ما يحتاجه الشخص المغترب العامل الوحيد، عُينَ بصفته المحامي الثامن للشركة، كان المحامون السبعة يعملون

ويديرون الأمور القانونية وكل ما يتعلق في الشركة من الأمور التي تخص القانون، حضر الاجتماع الأول والثاني و الثالث حتى ملّهم وملّوه، وسأم منهم وسأموا منه، وضاق بهم وضاقوا منه، أصبح كلُّ يشتكي من الآخر، قرر أن يكتب إلى مدير الشركة وكان المسؤول الأول نيابة عن والد مصطفى بإدارة كل شاردةٍ وواردةٍ تخص الشركة، أبرق بطلبٍ لقاءٍ وعند اللقاء لم يخبره بأنه لا يريد أن يغير صفته التي يعمل بها، بل عرض عليه أوراقاً كان قد أعدها في تطوير الشركة اقتصادياً، هذه الأوراق أثارت المدير وبقي يرفض لقاءاته الضرورية لسمع عن خطط هذا المحامي الجديد، لم يقتنع بأيّ فكرة من هذه الأفكار إلا إنه قد غير نظرتة نحو هذا الشاب الأنيق الذي يسعى أن يتقدم ويتطور، هي حسنةٌ لا يملكها الجميع، أن تكون مقبولاً محترماً عند مدير الشركة فأنت قد ملكت نصف ثروته أو كلها، بعد ثلاثة أيام من الأوراق السابقة قدم له أوراقاً أخرى، هي خططٌ تمثل رأيه الشخصي بألية التطوير وتوسيع مداخل الشركة حتى توفر أموال العاملين دون أن تتأثر بميزانيتها، هذا الأوراق جعلت المدير ينهض من مكانه ليجلسا معاً على طاولةٍ واحدةٍ مشتركةٍ، ساعةٍ وأخرى وغيرها وهما على حالهما، ينقبان الموضوع من شتى الأوجه، يستعرض سيف الفكرة ويبدأ المدير يعرض سبل تحقق أو عدم تحققها، في النهاية وبعد أربع ساعات متواصلة يقرُّ أنه لا بدّ أن يلتقي بصاحب الشركة شخصياً ويجلس الثلاثة معاً لبيحثا السبل

الاقتصادية والقانونية لكي يكسبها من المال ما يوفر عليهم أجور العاملين وأجور الضرائب المفروضة، تحدد الموعد سيكون في منتصف شهر نيسان من عام ٢٠١٩، وسيكون في الفندق الذي يعود إلى المسؤول الأول وصاحب الشركة.

بقي في مكانه، لكي لا يثير غضب أحد عليه، ولا يغضب من أحد، أراد أن ينتظر قدوم المنتصف من الشهر الذي سيحل به صاحب الأمر لبيت في الأمر قبولاً أو رفضاً، هو مرتاح لكل النتائج، سواء وافق على رأيه أم رفض، لأنه سيكسب معرفة صاحب الشركة وربما المنزلة المقربة منه لأنه يسعى أن ينهض باقتصاد الشركة وتنمية أرباحها، فكرة أن تكون صاحب فندقٍ وتعتمد عليه كأنه ضمانٌ هي فكرةٌ ليست بصائبة في أغلب الأحوال، ربما سيمر على الناس فترة قد تطول أو تقصر ستهبط السياحة إلى ما لا يُتوقع، فما الحل إذن؟

__ أن نلعب بالاقتصاد

__ كيف؟

__ إن الشركة تعرض على الدولة أن تقوم بمشاريع استثمارية وستكفل بتعيين الطلبة الخريجين من الجامعات مقابل أن تمنح الدولة تسهيلات لها واسعة .

— هذه تكلفةٌ كبيرة، لا تستطيع الشركة أن تتحملها

— سنقوم ببناء ستة مجمعاتٍ سكنيةٍ، وعشرة فنادقٍ في أربع مدنٍ، نقوم بتعيين الذين يعملون بهذا المشروع من اهالي تلك المدن

— من أين سندفع لهم والمشروع لما يكملُ بعد؟

— سنقوم بإنشاء مدنٍ صغيرة في هذه المجمعات البشرية، ونجعلها متكاملة من كل ما يطمح به الشخص

— سندرس الموضوع لاحقاً أشعر بأني متعبٌ ومرهقٌ ولا أفهم ما تقصد.

أراد أن يخرج، سمعَ منادياً خلفه، أترك هاتفك هنا، ابتسمَ بكلِّ فرحٍ وسلّم هاتفه الشخصي للسكرتير ومضى، في الساعة العاشرة مساءً يرّ هاتفه فإذا بصاحب الشركة يدعوه غداً إلى وجبةٍ غداءٍ في بيت هذا المسؤول الكائن في بقعةٍ تعد من أجمل الأماكن في لبنان، هي جنةٌ فوق رابيةٍ من الزبرجد والياقوت.

كانت رسائله متقطعة ومبتاطعة نوعاً ما لأهله، على الرغم من أن فراقه كان صعباً على والدته إلا أنها تركته يشق طريقه ويحقق لنفسه مستقبلاً ليتنعم أولاده به، الأيام لا تسرُّ، النازلات الصاعداً من متواليات الأيام والليالي تثير عاطفة أمه نحو ولدها الذي فارقها بيومٍ كأن لا رجعة بعده، وعدّها بأنه

لن ينقطع عنهم وسيبقى الاتصال سلوتمم الوحيدة في هذا البعد القسري الذي فرضته الطبيعة ونفسه التواقة لحالٍ أفضل وأكثر مستقبلاً، تموجُ التيارات المختلفة هنا وهناك، أمه ستدخل عامها الأربعين غداً، كانوا يختلفون جميعاً عند ذكرى ميلاد أحدهم ولكن هذه المرة سيغيب نجمٌ منهم، في هذا اليوم يطرقُ باب مشاعرها شخصٌ، ويحرك الساكن من دقات قلبها، ويشير فيها ما يثير البنت لما تتفتح عينها للحياة، هو زميلٌ لها في ذات المدرسة التي تُدرس بها، عمره ثلاث وثلاثون، أنيقاً، وسيماً، جسمه مائلاً للسمنة، حليقٌ اللحية، شعره مائلٌ للصلع، لديه شقة، وسيارة وراتب أقل من راتبها بقليل، صفاته تدلُّ على خيرٍ، شكله يجذب البنات، أهله يسكنون بالمنطقة نفسها، هو متزوجٌ ولكن انفصل عن زوجته بالطلاق لأسبابٍ ما، أخذت أمه تعرض الموضوع على أبنائها، وافق الثلاثة وبقي سيف كيف يا ترى السبيل لعرض الموضوع عليه؟

طلبت من ولدها علي أن يكلم أخاه بالموضوع ويعلمه أن كلامه سيكون هو الرأي ولا رأي يعلو رأيه، حالما سمع الخبر حتى انقلب غاضباً، مؤنباً، شامتاً، نسي أنها أمه، ونسي أن لها الحق في ذلك لكنه زعق بكل غضب، مما جعل أخوه الأصغر يغلق الهاتف بوجهه، ولا يرد على مكالماته التي لم تنقطع، هدأ من نفسه، راح يعرض الموضوع ويقبله في شتى الأوجه بهدوءٍ ورويةٍ، اهتدى أنه منشغلٌ هنا، لا يريد أن يشغل فكره بأية قضايا أخرى، بعد انقطاع

اسبوع يتصل بهم ليعلن لهم موافقته ومباركته ، كيف غير رأيه بهذه السرعة الطارئة ومن المؤثر يا ترى؟

عندما التقى بصاحب الشركة أخذ يسرد له سبباً ابتكرها من بُنيات أفكاره، كان يتكلم بحماس واضح كأنه صاحب الشركة! كان لقاءً مثمراً بالنسبة له، شخصيته كان جاذبة على الرغم من حداثة سنه، إلا أنه ملك إعجاب رئيس العمل وقربه، بعد أحاديث في التجارة والاقتصاد والعمل، سأله عن عائلته في العراق؟ أخبره بقصتهم دون نقصان ولكن بزيادة مفرطة ليثير عطفه أكثر، أخبره بقصة أمه وما استجد من شأنها، ضحك صاحب الشركة ملاً شديقه وقال له: دعها تعيش حياتها بظل رجلٍ، بارك لها زواجها حتى لا تقلق لشأنها، دعها تعيش ما تبقى من حياتها عسى أن تعوض ما فاتها من حيف وقساوة ومعاناة.

كانت الشركة سلوتي وأملي في أن أرتقي سُلماً أعلى، أنا أصرف من التفكير أضعاف ما يفكرون فلم لا أنال ما ينالوه؟ الأيام الصعبة لا بد أن أنال جزاءً لأني صبرتها، هؤلاء الأغنياء لعب الحظ لعبته الكبيرة معهم، إن الفرق بين الغني والفقير هو أن هذا عرف قيمة عقله فمضى خلفه متبعاً إياه، وأعطى لدماغه كثيراً من الوقت ليجعله يقظاً على الدوام، فأخذ الدماغ يفكر وينتج ويبدع ويدور وينمي، أما الفقير فإنه لا يكلف نفسه كثيراً من التفكير في

غده، الغد مجهول فعلامٌ أقلق بشأنه، إذن الفرق بين الغني يكمن في القناعة، هذا لا يكف عن الطموح وهذا لا يسعى لأي طموح! كنتُ أرسُم خارطةً جديدةً للمجمع الذي سنقوم ببنائه في العراق، العراق يعاني وربما سيبقى يعاني من أزمة السكن، لنستغل الفرصة إذن ونبادر بالفكرة، من حسنِ الصدف أن جميع أعضاء الهيئة الخاصة ليس فيهم عراقيٌّ، هذا يعني أنني سأكون المسؤول عن المشروع في العراق، العراق ليس بمأمن لمشروع كهذا، لا بدّ أن نضع العقل هنا في بيروت ونمد الجسد أينما استطاع أن يصل، هذه مهمةٌ كبيرة وتحتاج مني أن أخططَ لها حتى يُسارع في بدأ المشروع الأكبر والأهم في كل حياتي ، وضع خارطة العراق وراح يرسم بأي مدينةٍ سيكون المشروع وأيها أكثر أمنا، اقتنع في بغداد وأربيل لأنهما عصب العراق السياسي، فلا بدّ أن يطبق المشروع في هاتين المدينتين.

إنَّ انتصار المدينة على الريف سيقضي بلا شك على كثير من القيم الانسانية، لعلَّ فقدان حالة التوازن غير المنتظمة بين المدينة والريف سيسارع في تقويض مستقبل البشرية، العالم المادي لم ولن يمكن أن يحلَّ محل النظام الطبيعي، ربما سيكون ذات يوم الأكل الاصطناعي يحل محل ما تنتجه الأرض! المواد البيولوجية والكيميائية ستكون هي الغذاء الرئيس للبشرية إن ما أعادوا لحياتهم الأولى مضطرين، هذه ليست فرضيةً أو ضرباً في الحظ عسى أن يصيب.

المواقفُ قد أعطتني جُرعات من الألم، إن الظروفَ هي التي تُحرِّكَ البشر حسبما أرادت وما البشر إلا عبيدٌ بأمرها يأتمرون، كانت سفرتي إلى بيروت قد غيرت كثيراً من آرائي في الدين والسياسة، لم تكن الأماكن هي التي تستهويني بل كنتُ أتتبع الأثر الحضاري الذي يدلُّ عليه المكان، كان صديقي المرشد السياحي لا يعرف من الأماكن إلا معلومات لا ترقى لترويهم متطلعٍ مثلي، كانت المستشفىُ تُمثلُ المكان الذي حقق لي التوازن الداخلي، إن فرصة العمل تعيد التوازن وتبعد القلق عن الإنسان لأنها تجعله يطمئن نوعاً ما أنه لا يموت من الجوع ما دامت فرصة العمل مستمرة، كنتُ استيقظُ في ساعةٍ مبكرةٍ لأصلي صلاة الصبح وأتلو بعض الأوراد وأكرر

كلمة يا الله لمئة مرة وأستغفره لمئة أيضاً، أصبحت لدي عادات أشبه بالعبادات وتحولت بعض العبادات إلى عادات، لا أملك غير أن أقول أن نفسي لتشعر بالهدوء والسكينة لأنها كانت بمأمن من غائلة الزمن وحوادثه الطارئات، لأي خيار أنا مقبل وأي سبيل أنا سالك، جاهل متمرّد، ذلك الذي لا يعي أنه موكول لمهمة لا بد أن يؤديها أحسن أداء، لا أعرف ماذا أريد، ولا أفهم لمن أسعى، كنت كالذي يمضي في غابة ظلماء بليل شتائي بارد ويسمع أصواتاً لا يميزها أو يفهمها، أنا أردت أن أكون مميزاً عن الأقران ولكن بماذا؟ تلك حيرتي التي عشتها وبقيت أعاني منها حتى الآن، المهم أني قد حصلت على درجة وظيفية، فلا داعي أن أقلق بشأن الدنيا وما فيها، لا ينبغي أن أفكر كما يفكرون؟

أيام حالكات قضيتها، ليالي يعدين الوصال على القلى، أتوسد فراشي كمن لدغته أفعى ويأن ليلة حتى ينبلع الصباح، هذا الليل الذي يشتهي به كل البشر، لأنه سكينه لكل ما يكدر صفو حياتهم، ويجد العشاق به سلوة لقضاء سويعات مع فتاة تسلب اللب وتسحر الروح بحديثها ومداعباتها، كنت أسلي النفس بحديثها الذي لا ينفك وهو ألهل من غانية عذبة تُلحن بلسانها وتتأنق بحديثها معي؟

غريبٌ كمسافر، شريدٌ كهاربٌ، غريقٌ كالذي أبحرَ في متاهاتٍ لا يعرف الغوصَ بها، أمرٌ كطيفٍ خفيفِ الظلِّ على إحداهنَّ ولكنَّ هل ستبادرَ وتتقدم أم ستحجم لأني لن أتقدم إلا بالنظرات وهل للغَةِ النظرات لغةٌ أجمل، كان عليها أن تتجاوز حدود الأخلاق وما يسمى كذباً بالشرف وطهارة الأرومة، أردتها أن تحتصر الزمنَ وتُسبقَ الظرف لتأتي بلهفةٍ تعيدُ البهجةَ في صحرائي القاحلة الجذباء، أسمعهم كثيراً، يرددون بأنهم تعبوا أو لم يعد أحدهم يستريح من هذه حتى تتصلَّ به تلك، ليالٍ حمراء، وماء ينزل من الأعضاء الاثارة، وشهوةٌ تعصر نفس أحدهم، هكذا كان رفقائي في العمل وهم يتحدثون عن علاقاتهم مع النساء، إحداهن كانت حلماتاً لأي فتى أن ينالَ بعض الوقت معها بجديثٍ وليكن رسمياً، ولكنَّ بعد حين رأيتُ لها صورةً وهي تتأوه من عضو زميلٍ دخل في مكمنها، صرْتُ لا أطمئنُ إلى النساءِ أبداً، كرهتهنَّ جميعاً، كلهن زانيات ولسنَّ بشريفات، لا توجد واحدة إلاً ومارست الجنس عشرات أو مئات المرات مع رجلٍ بجسده أو أثناء حلمٍ في يقظتها أو نومها، هكذا كانت صورتي السوداوية عن النساء، لم يستطع لي أكلٌ من أمي، أختي، وغيرهنَّ الكثير، عندما أسأل عن سبب عزوفي عن الأكل في بيتنا، أتعللُ بأسبابٍ هنا وهناك، حتى أهرب من مأزقٍ لا أريد الخوض فيه، أعلم أنّ رؤيتي أصبحت سوداء قائمة لكنها طغت وهيمنت على بصيرتي فلم أعد أرى غيرَ تلك الصورة القبيحة، كانت الوظائف تمارس

الجنس في اليوم عشرات المرات، أثناء الحديث، أثناء العمل وغيرها، كم هي المرات التي رأيت جمعاً من بعض الأشخاص وهم يتلذذون بجسدٍ عابرةٍ مرت بخطف، تضع مسحوق أحمر الشفاه وتكلمني عن قربٍ، لم أنتبه لأي موضوع كانت تقصد، كنت أحاول أن أحفظ حركة صعود وهبوط الشفتين أثناء الكلام، كنتُ أنتظر نهاية الدوام لأعود وأخذ بالتلذذ في حركة تلك الشفتين، ودقة ذلك الصدر الذي عرفت كم حجمه وأين تقع الخُلمة إن لبست هذا الثوب أو ذاك، بل صرت أعرف مكانها بأي ثوبٍ ترتديه، كانت متمدمة أو كالمتمدمة أن تثير فيَّ غريزةً كامنةً ساكنة، بتغنجٍ متصنع، وبمركاتٍ ذاتٍ مسحةٍ جنسية، أذهب بخيالي هناك .. هناك .. حيث سريرٍ أنيقٍ ومتينٍ ليتحمل أن يطأ جسدين بعضهما بعضاً، أستغفرُ الله كثيراً.. أستغفرُ الله على كلِّ ذنبٍ.. أستغفرُ الله ربي وأتوب إليك..

كان سيف قد أبي إلا أن يكونَ خفيفاً على أهله، أرادَ أن يتخذ من سلم الثقافة التي تجني من الأموال، كانت شهادة البكلوريوس لا تعد كباقي الشهادات، أراد أن يقدمَ للدراسات العليا، وبذلك تبدأ القصة تنحو منحى مغايراً تماماً، لكنه منحنى ينسجم مع الجو العام المعروف، أن تكونَ النقطة البيضاء في الجسد الأسود فعلمية زوالك تكون بسيطة، إما أن تذوب وتغير جلدك أو تخرج خارج السرب وبذلك تضع نفسك بموضعٍ تأسن به ولكنه لا يحقق لك تلك الرغبة التي كنت تسعى سعيًا حثيثاً لتنالها.

سعيثُ إلى مجدٍ أتوقُّ إليه منذ أبصرت عيناى أن المال يصنع الوجاهة والكرامة وربما كل شيء ولكن، لدي هوسٌ يؤرقني كثيراً، أريد ولا أعلم كيفية الوصول إلى ما أريد، لعمري أنى وقعت بما لا ينبغي أن يقع به مثلي ومثل ظروفى، كانت أيامى الجامعية قاحلةً من النواحي العاطفية، أسمعهم يتكلمون وأراهم يجلسونَ معاً، أتمنى أن أعيش كما يعيشون وأتكلم كما يتكلمون، يصادقُ هذه فى مرحلته الأولى ليأخذَ منها ما يلدُّ ويتركها لغيره بعد أن نالَ وطره منها، ليأتى فى آخر السنة الدراسية يلجأ إلى أمه لتختار له من أشرف البيوت وأطهرها، كأنَّ تلك التى عبث معها ولوث بياض روحها هى موسمٌ لا تستحق أن تكونَ زوجةً له، المرأة تتعامل بمشاعرها وهو يتعامل بغريزته وشتان بينهما، هى لا تشعر أنها فعلت جريمةً نكراء بل إنها تفرح لأنها لبَّت لعشيقها ما أشتهى وأراد، يستدرجونها نحو الرذيلة وعندما تقع يتكرونها مجروحة بسكين صدرهم ويمضون إلى امرأة أخرى، لم أجد إحداهن تملك الجرأة لتكلمنى وتصارحنى بأنها معجبةٌ بي وتودُّ ما توده النساء من الرجال، كنتُ كثيراً ما أتخيل فى صحوى ويقظتى أن إحداهن ممسكةٌ بي وتطربنى بأجمل الكلمات وتتغزل بي كعاشقةٍ تيمها الهوى، لكن لم يأتى ذلك اليوم الذى يكون فيه الخيال واقعاً.

الخيالُ يحققُ للمرء ما يعجز أن يحققه فى واقعه، كثيراً ما يلجأ الأفراد إلى تُرّهاتٍ ليهربوا مما يعيشونَ فى واقعهم المرُّ، عند المحن تظهر قوة الفرد على

تحمل هذه الحياة، الشبان في بدء حياتهم يسعون إلى الشهرة أكثر من غيرها، وينسون ما عليهم من واجبات يجب أن يؤديونها بتمامها وإلا خاب سعيهم ، تمزُّ الفرصة مرور الكرام، سعيدٌ من لحق بها وأدركها، وفشل من استبطأته همته عن بلوغها.

سأسلك طريقاً وِعراً لأحققَ لِنفسي ما تطمح إليه منذ يفاعتها، كانت فترة دراستي عبارة عن روتينٍ مملٍ، لكن العمل في المستشفى خلق لي الوقت والهدوء لأعيدَ لِنفسي توازنها، حددتُ الوقت ورسمت خارطة لجدول أعمالي القادِماَت، كثيراً ما ضيَّعت الوقت لأُمورٍ يشغلني عنها الشيطان الرجيم أعاذني الله منه، أرى المرضى متدمرين على الدوام من كلِّ موظفٍ في المستشفى الحكومي، هذه العلاقة المتشنجة على الدوام سببها هو الموظف بنسبةٍ عاليةٍ، إن الموظفَ يشعرُ بالزهو والتبختر أمام المرضى وذويهم، مما خلق فرصةً للتشنج الطويل عقب حُقبَةٍ كبيرةٍ من تاريخ العلاقة غير الودية، أخذت أسعى جاهداً أن أجعلَ من نفسي خادماً وعلى الدوام لأولئك الذين ضاقوا من العلاج على نفقتهم، صرْتُ أركض هنا وهناك خدمةً لأحدهم أو دُ قضاؤها، أشتكى ذات يومٍ أحدهم مني إلى المدير ولم يرضَ المدير إلا بعقوبةٍ خصم ثلث مرتبي لأني سعيْتُ لقضاءِ حاجةٍ غريبٍ، أن تكونَ نزيهاً في محيطٍ لم يمارس ولا يعرف للنزاهة حُرُفاً هُوَ عبثٌ ينقلبُ عليك وأنت لفي غنى عن هذا.

ذاتَ يومٍ نشرْتُ على صفحتي عبر الفيس بوك، تساءلتُ فقط، كيف يُفتح مختبرٌ أو صيدليةً أمام المستشفى الأكبر والأوسع في المدينة كلها! بل الأدهى أن التحليلَ والعلاجَ لا يتوفر في المستشفى ويتوفر في هذه الدكاكين التي تقابل المستشفى بمسافةٍ لا تبعد العشرة أمتارٍ! تفاعل الجمهور الذي كان أغلبه من الابتزازيين، ومن الموظفين العاملين في هذه المختبرات وهذه الصيدليات، لذا كنت تلك النقطة السوداء في الجسد الأبيض النقي، ضاقوا بي أجمعهم فرفعوا بي شكوى في الحال وحصل ما حصل بعدها.

أتاني إنذارٌ بوجوب نقلي إلى مكانٍ آخر، وكان هذا المكان في قريةٍ تبعد عن مدينتي أكثر من ساعتين!

لملئتُ أوراقِي ومضيتُ إلى المكان الذي نُقلتُ إليه، كنتُ راضٍ عن نفسي وعن هذا الأجراء الذي أُتخذَ بحقي، شعرتُ بتدفقٍ من السكينة يسري في داخل نفسي، هذه المنطقة التي لم أزرها يوماً إلا بعد أن تحولَ مكان عملي هناك، هذا المكان يختلف عن مدينتي في كثيرٍ من الأشياء، القيم، المبادئ، التفكير، وغيرها الكثير، وجدت أن المكانَ الذي نُقلت له عبارةٌ عن مركزٍ صحي ناءٍ بأطراف المدينة، ولكني لم أخشَ إلا على توفير مكانٍ أنام في الليل، طلبتُ من مدير المركز أن يسمح لي بأن أتخذَ غرفة المختبر مكاناً لي أنام فيه ليلتي، رحبَ وقبلَ ودعاني إلى ضيافته إلى أني رفضتُ، الحياةُ تجارِبُ متعددة، الأخطاءُ نتعلمُ منها ومن لا يخطأ لن يتعلم ولن يجد الوسيلة التي يرقى بها إلى منزلةٍ أرقى.

(٦)

جذابة، رقيقة، بياضها مما يُجِبُّ، جسمها مما يرغبُ به، ذكاؤها مما يُلفتُ النظر، خفيفة الظلِّ، سريعة الحركة، لا تملُّ ولا تحمل، تعمل كأنها آلهُ صماء، تلك هي مواصفاتها وبكلِّ بساطةٍ ووضوحٍ، في يوم الأثنين المصادف ٢٠١٩/٩/٢٢، باشرتُ في الدوام في هذا المركز، أوّل ما وقعت عيني عليها، إنّها نظرت لي نظرةً عابرة لكنها كانت كفيّلة بأن تعيد لي نفسي التائهة في عوالم لا أعرفها، سبحت في عالم عينيها العسليتين، وصرتُ أشق الطرق الوعرة لأغوص في أعماق صحراء بؤبؤ هذه العيون، حلّقتُ في الخيال لأعيشَ وللحظاتٍ خاطفة ما أعجز عنه في الواقع، تعمدتُ السلام عليها، لأسمع موسيقى صوتها الرقراق، ردت بكلِّ استحياءٍ، سألتها بعد لحظةٍ صمتٍ وسباحةٍ في عيونها الواسعتين

— حضرتك محللة؟

— نعم

— تشرفتُ بك، الحمدُ لله عرفتُ زميلةً لي

— أهلا ومرحبا بك، حضرتك منتسبٌ جديد معنا؟

— من حسنِ الحظ، أن يكونَ تنسيبي هنا!

— هذا المختبر، نحن زملاء إذن في ذات المكان

— وهذا شيء يدعو أن أشكر الله جلّ وعلا على نعمة العقوبة

— وهل أنت معاقبٌ أم أتيت بتدرج الوظيفة؟

— الدولة تظنها عقوبة ولكني أراها مكافئة

— تبسّم بتعجّب واضح، وتمضي إلى غرفتها

نسيث نفسي بأني تجاوزت لياقة الكلام معها، لا ينبغي أن أكون خفيفاً لهذه الدرجة، لا بدّ أن أتحمّل ببعض الرزانة وإلا ذهب كبريائي وقوة شخصيتي، أوضحت لي بعض ما أحتاج إلى معرفته، كنا خمسة أفراد في المختبر، ثلاثة كبار في السن وأنا وخديجة الموظفان الجديدين، فرحتُ بأني لا أجد من يشاركني بخديجة، كان يوماً جميلاً بكلّ ما يحمله، بدأتُ بها وأهميته بها فكيف لا يكون جميلاً!

صديقه مرتضى مال إلى دراسة الماجستير بعد أن عجزَ أن يجدَ وظيفةً يعيش منها، وحتى بعد حصوله على الماجستير فإنه لم يجد تلك الوظيفة التي يطمح لها، مرتضى أصبح عضواً مهماً في الشركة، إذ لا تُوقع ولا تنتهي الصفقات إلا بعد أن تعرضَ عليه ليرى رأيه بها ويقدم تقريراً حولها، كان ليلى طويلاً إذ إن المساء يبدأ عندي حالما ينتهي الدوام الرسمي، فجأة خطرَ لي خاطرٌ أن

أبعثَ رسالةً إلى مرتضى لأطمئن على أخباره وأسأله عن أحواله وعن غربته في بيروت، الواتساب يبدو متصلاً ولكن لا يرد على رسائلي، قررتُ أن أتصل به، لكنني رأيت الرفض على مكالمتي، قررت أن أغضب عليه لأنه لم يقدر من المتصل، بعد ساعة تأتي الرسائل تباعاً، كان شوق المرسل واضحاً من كثرة هذه الاشعارات التي رأيت قد ملأت شاشة الموبايل، فتحتها فرائيتها من شخص لا أعرفه، عرفني بنفسه أنه مدير مكتب الأستاذ الدكتور مرتضى الكاتب، ربما أكون أخطأت في الرقم، لأن مرتضى لم يلقب بالكاتب ولم يحصل بعد على الدكتوراه ولم يصل لمرتبة الأستاذية بعد، اعتذرت له عن خطأي ولكني سألته عن هوية مرتضى الكاتب هذا، عرفني به فعرفته هو ذاته صديقي، هنا صدمت كيف تغيرت الأحوال وأصبح مدير مكتب الشركة بل المستشار الخاص للمدير، أخبرت السكرتير أنني صديقه المقرب وأريد أن أتواصل معه، بعد يومين من الانتظار المتشوق لصديقي الحميم، يتصل بي هو ويطلب مني أن أفتح الكاميرا معه، بقينا نتواصل لأكثر من ساعة حتى اتفقنا أن أطلب إجازة وأذهب إليه إلى بيروت، أخبرني بأن هنالك مشروعاً مهما تود الشركة أن تنشئه في العراق ويحتاجون إلى أيدي عاملة وعقول مفكرة تساهم في نجاح المشروع، لم يمهلني أستفهم منه عن الموضوع بل ألحَّ أن أسارع في السفر إليه.

التواضع إن كان بإفراط سيؤدي إلى ذهاب شخصية صاحبه، إن التواضع يُساء فهمه في كثيرٍ من الأحيانِ على أنه ضعفٌ لذا فاحذر أن تكونَ ضعيفاً ولكن في بعض الأحيان عليك أن تنسى أو تتجاهل لكي تحقق مآربك، هكذا كنت أسمع منه عندما نجلس معاً، مرتضى لديه طموح ويريد أن يحققه سواءً بطريقةٍ زبهاء أو بغيرها، هو مَلَّ واقعه المأساوي وصبر كثيراً عليه لكن نفسه لم تعد تطيق الصبر أكثر، علّمني أن أكونَ متلوناً كالخرباء، إذا أردت أن تعيش لا بدّ أن تتنازلَ عن كثيرٍ من القيمِ وكثير من الكرامة، الحياةُ ماضية للتعقيد أكثر، كلما توغلنا في المضيِّ نحو المدنية كلما بدت الحياة أكثر صخباً وعبثاً، شُلت كثير من الأمور ولم يعد لها وجود يذكر بسبب الثوب الجديد الذي لبسناه.

لم أبقَ في العمل في هذا المركز القروي إلاّ بعض الأيام حتى شددتُ الرحال إلى بيروت، قبلَ موعدِ السفر توصلتُ مع صديقي المرشد السياحي وليد، تبادلنا كثيراً من الحكايات والمواقف، ضحكنا وعبثنا وأخبرني أنه سينتظرنِي في مطار بيروت، ويجب أن أقضي يوماً بضيافته، قبلت وبي رغبة لزيارة بيروت مرةً أخرى، كان مرتضى قد طلب مني ألا أخبرَ أحداً بموضوع سفري إلى بيروت، هنا وقفتُ مستدركاً، متسائلاً لم لا يريد أن أخبرَ أحداً حتى أهلي، أخبرتهم بأن رحلتي هي رحلةٌ سياحية وترويحٌ للنفس، كنتُ أتوق إلى إخبارِ خديجة بكلِّ ما يخصني، بدأت أشعر نحوها ما يشعره الحبيب ولكن

مهلاً فما زلت لا تعرف عنها شيئاً ولم يقع بيننا إلا الزمالة، هكذا أخبرت نفسي حتى لا تتمرد في خيالها وتذهب بعيداً.

وليد، المرشد السياحي الأفضل من بين الأصدقاء الذين عرفتهم، لديه سعة عالية في التحمل والصبر، صعوبة أن تجده غاضباً، طبعه سلس بارد، لم أنقطع عن التواصل معه طوال فترة عودتي من بيروت في الزيارة الأولى، صرتُ أتواصل مع وليد يومياً عبر برنامج الواتساب، لأقضي معه شطراً من الوقت، لم يمل مني ولم يجد غلظة فأنا كنت خفيف الظل عليه، هكذا أخبرني وهو الصادق فيما يقول، وليد بلغ من العمر خمس وثلاثين عاماً، ما زال رافضاً لفكرة الزواج، سألتُه عن السبب فأجده يتهرب كلما سألتُه، يقول الزواج فكرة خاطئة مثله، ولما يسألني عن نفسي يأخذني الخيال دون أن أجد فكرة صريحة مقنعة لسبب رفضي الزواج.

الرجوع إلى الماضي الذي لم أخرج من عباءته يوماً أقض عليّ كل لحظات الفرح والبهجة، أريد ولا أعرف ما أريد، يا حيرتي الكبرى، كنتُ أسيراً لماضٍ فُرض عليّ فرضاً ولم أستطع النجاة منه والتحرر من قيوده، الصبر هو الوسيلة التي أتسلّى بها لأداري بها خيالاتي المتكررة.

أجرة المشقة، مقولة شائعة، نسمعها ونعرفها، نردها بإتقان، نحفظها للأجيال، نستشهد بها كثيراً، نرغب ولكننا لم ولن نقبل أن تطبق علينا،

الموظف في الدائرة الحكومية لا يعمل إلا بنسبة عشرين في المئة، ولعل الموظفين لا يتجاوزن العشرة في المئة، لو كنت مسؤولاً في الدولة لفرضت شرطاً وقيداً وهو الأجر على قدر المشقة، هنا سأضع الموظف على المحك وأجعله يسعى ولا يفتر ليأخذ أكثر فأكثر، الأطباء لا يستحقون راتباً إلا بمقدار الأيام الأربعة التي يأتون بها إلى الدوام، يعملون ساعتين في الأسبوع ويأخذون راتب ثلاثين يوماً، سألت صديقي لم لا يحاسب الأطباء على هذا التسبب الكبير ، كاد أن يضع يده على فمي لئلاً أثير على نفسي مشكلةً ما، الوزارة هي ملكٌ لهم ولا يستطيع أحد منهم أن يغير سنةً مُتَبَعَةً، يموت المريض لأنَّ الموظف مقصّرٌ معه، كثيراً من الحالات التي شهدتها كان الكادر الصحي هو المتسبب الأكبر بها، الموظف الحكومي يشعر بمرجسية عالية مفرطة في مكان عمله، ولما يراجع دائرةً أخرى تراه يبدو كالنعامة ونسي أن الدائرة قد دارت عليه و يا ليتهم يتعظون!

كنتُ مستاءً جداً من هذا الإهمال والفضى ولكن صديقي كان كثيراً ما يذكرني بأن أخاف على نفسي وعلى وظيفتي التي حصلت عليها بالكاد، لا يوجد الفساد في دوائر الدولة إلا عند غياب الرقابة، إنَّ الأدهى أن تشكل النزاهة من هؤلاء الموظفين الفاسدين وتلك هي عقبةٌ كبرى!

أخبرتُ خديجة بصفتي زميلاً لها بأبي سأذهب إلى بيروت بسفرةٍ سياحيةٍ، أحسستُ كأنها غضبت ولم تحبذ سفرتي، أخبرتها بأني غاضبٌ ونفسي ترغب بأن تشم عبير بيروت، فرحت بهذا الشعور لأني لمست الاهتمام منها وربما هو الحب وما ذا يكن غيره إذن!

موعد طائرتي في العاشرة صباحاً، وصلت المطار في تمام الساعة السابعة، أكملت الاجراءات وأخذت أنتظر حتى تحين الساعة العاشرة، جلست في المطار أرقب المسافرين، الحالات هنا مختلفةٌ متنوعة، منهم المسافر الفقير الذي ذهب للعلاج ومنهم الغني الذي ذهب سياحة، تتفاوت الاقدار بحسب الظروف، وصلت الساعة للعاشرة، ركبنا الطائرة كلنا والطائرة لما تزل واقفة، سألنا عن سرِّ وقوفها، فقيل لنا أنّ هنالك شخصٌ لم يصل بعد، وبقينا ننتظر ومنتظر حتى وصلت الساعة العاشرة وخمسة وأربعين دقيقة، أقبلَ هذا الشخص وكان وكيلاً للوزير وينتمي إلى مجموعةٍ دينية لها مواقع مهمة في الحكومة فكيف لا تنتظره الرحلة وكيف لا تؤجل إن رغبت في ذلك !

الأملُ بدأ يُلوِّح لي حالما وطئت قدماي أرض مطار بيروت، رثاي إتسعتا لتأخذا أكبر كمية من الانشراح، السعادةُ كانت تغمرني حينها، البهجةُ واضحةٌ على محياي، البشاشةُ مرسومةٌ على وجهي للجميع، رأيتُه ينتظرني، تعانقنا بحميميةٍ عراقيةٍ معروفةٍ، أخذني وليد إلى شقته الكائنة في قلب

بيروت، كنتُ منشرح الصدرِ وأنا ماضٍ في الطريقِ إلى الشقة، أخذتُ قسطاً من الراحة وبعدها خرجنا لموعِدِ طارئٍ، أخبرني وليد أنه يريد أن يقابلني بشخصيةٍ مهمةٍ ولدينا مشروع عمل في العراق ولبنان وسوريا واليمن، دخلنا في مطعمٍ فاخرٍ حتى خشيت على وليد وعلى نفسي من هذا المطعم، كان مطمئناً، وكنتُ قلقاً، حاولت أن أسحب الكلام منه إلا إنه يرفض متحججاً بالشخص الذي تنتظره هنا، ساعةً كاملةً حتى ينتفض وليد ليقول: ها هو أقبل.. يا أهلاً ومرحباً

رمقتهُ فإذا بها الصدمةُ تأخذني وتأخذه، لحظةً أو بعضها وكلانا منبهراً بهذه المفاجئة غير المتوقعة، تصافحنا ببرودٍ واضح، أخذ وليد الذي فوجئ هو الآخر بنا يكسر حاجر الدهشة والصدمة ويفتح الحديث بيننا، هذا دليلٌ كبير على أننا سننجح في عملنا وسنحقق تطوراً ملموساً بإذن الله، هزنا رأسينا علامة الرضا، كان مرتضى رجلاً عملياً وقد تحولت الحياة عنده إلى صفقاتٍ، بدأ مرتضى يتكلم عن مشروعٍ يعقد العزم على تنفيذه، بعد أن تناولنا طعامنا بدأ الحديث عن المشروع، كنتُ جاهلاً في أغلب الحديث، لا أعرفُ شيئاً عما يقصد مرتضى، المشروع هو التجارة في الاجهزة الطبية والعلاجات، وبيعها في نظامي التقسيط والمباشر، حتى الأمور التي تخص حياة الإنسان ستدخل ضمن هذا النطاق البيع والشراء!

رحبتُ بالفكرة دونَ قيدٍ أو شرط، قريباً سنتواصل لأخبركم عن المكان الرئيسي للشركة، أخذني مرتضى معه بعد أن انتهى اللقاء إلى شقته، قصَ عليّ مرتضى أنه لا يثق بوليد كثيراً فعليّ أن أحذره، هذه المخاوف التي بثها بي مرتضى كان قد سبقني بها وليد، أوصاني وليد ونحن في المطعم أنه يخشى ويقلق من هذه الشخصية القادمة إلا أنه مضطّر أن يعملَ معه، في سبيل أن تصلَ لغايةٍ تتمناها لا بدّ أن تتنازلَ عن كثيرٍ من المبادئ وتحملُ كما من التحمل، بدأتُ أفكر هل عليّ أن أحذر مرتضى أم وليد أم كليهما؟

بثُّ ليلتي وأنا أتقلب في فراشي مما سمعت، مع من أميل وإلى من أركن نفسي؟ لأكن واضحاً مع نفسي حتى أستطيع ان أسير بينهما وأنا واثق الخُطأ، اللقاءاتُ بدأتُ تزداد ففي اليوم لدينا ثلاثة أو أربعة أو خمسة مع خبراء ومستشارين لمعرفة مدى نجاح أو فشل المشروع، بدأتُ ألمس لدى مرتضى قبولاً بالأفكار التي تُطرح ولها جدية في العمل ويود أن يُسارع في البدء، الوقتُ بثمن، هكذا كنتُ أسمع منه دائماً، يرتبُ المواعيد حتى الخاصة منها بصورةٍ عجيبة حتى إنه كان منضبطاً حتى في مواعيد دخوله الحمام! كان يقول الوقت له قيمةٌ كما الأموال، لا بدّ أن أحصل في كلِّ دقيقةٍ قيمة، الاستشارات النهائية قد أقرت أن أرض الشركة ستكون هي بغداد ومنها توزع إلى المحافظات، العراق معتمداً على الاستيراد بنسبة خمسين في المئة وقريباً ربما ستصل النسبة إلى الثمانين وربما إلى التسعين، سنبدأ بالتجارة لتحوّل إلى القطاعات الأخرى بعد نجاح المشروع الأول.

إنَّ أخصَّ وأقدر البشر هم أولئك الذين يتحكمون بمصير الإنسان، بل الأقدر منهم أولئك الذين يجعلون الإنسان تحت سطوة جشعهم، الإنسان ولد للعذاب والشقاء، إنَّه لمن العجائب أن يعيش الفرد بسلام أمام أناسٍ لا يمكنهم العيش إلا بالعنف، قيمة الإنسان أعز من أي شيء في هذه الخبرة التي تسمى دنيا، هذه دار الخراب والفناء مرحلة تعتمد على هذه أيما اعتماد، الإنسان يعيش تحت هذا الضنك والاستبداد والقهر ويراد منه الصبر على هذه المكاره، إنها مهمة صعبة ولا تطاق، الارتباطات التي قضاها مرتضى مع زملائه كانت تجري بانسيابية عالية، العلاجات التي سيتم صنعها في ذات الشركة التي يعمل بها مرتضى، بمعنى أصبحت الشركة هي المصنِّع والمصدر والموزع والقابض، هذه المهمات الأربعة كانت هي الفكرة التي أطلقها مرتضى أمام مجلس الإدارة المنعقد برئاسة رئيس الشركة، أقرَّ الجميع على هذه الفكرة ورحبوا بها أجمل ترحيب، لأن الشركة ستنتفع من كل شيء وتصبح هي الكل في الكل، لن تحتاج شيئاً، أوكلت مهمة التصدير والبيع لمرتضى أن يتكفل بها ويشرف على سير العمل، لم ينس الصداقة الطيبة التي بيننا بل إنه أبرَّ بها أعظم البر، نال مرتضى ما حلم به، أصبح مسؤولاً رفيعاً وتحت يديه ملايين الدولارات في خزينته، لكن ذلك كان نتيجة الدأب على الطموح والتفكير المفرط في الرقي والحصول على أعلى المناصب، بدأ التوزيع يجري على قدمٍ وساق، نُقلَ ولید إلى كردستان وفرعها في مدينة أربيل، وأنا

سأكون في مدينة بغداد، وسيشرف علينا مرتضى أول بأول، كانت لدى مرتضى علاقات واسعة مع الحكومة وشتى الوزارات، كانت مهماته تقضى برفع الهاتف فقط، هكذا هم رجال الأعمال فلا وقت لديهم، المكان جاهز، والتسهيلات متوفرة بأوسع نطاق، لم يبقَ إلا الاتفاق النهائي مع الجهات الحكومية المعنية، كنت أظنُّ مرتضى سيجلس مع ممثلٍ لوزارة الصحة يتكلم بلسانها ويتفق بحسب رأيها، لكنني فوجئت بأننا ذهبنا إلى منزل رئيس كتلة برلمانية لتفاوضٍ معه لأن الوزارة كانت بيد نوابه ووزيره!

كان مرتضى مُلمّاً بكلِّ أدبيات ولياقات الاتفاقيات، لديه خبرةٌ واسعةٌ جداً في إبرام عقد الاتفاقيات مع تجارٍ كبار ورجال أعمال ذوو نفوذ كبير، كان رئيس الكتلة شخصاً بليداً أو هكذا بدا لي، أحسست أنه لن يوافق حتى يقلب الأمر بأوجهه المختلفة، وبالفعل بعد قضاء ثلاث ساعات معه في الختام أخبرنا بأنه لم يقتنع بالصفقة بعد.

التجارة مربحةٌ خاسرةٌ، هكذا كان يعرف، لكن التجارة بأرواح البشر رابحةٌ على الدوام، إن كثيراً من البشر يعيش على زهق أرواح البشر، كأنه كلما زادت الضحايا ازدادت ثروته التي ارتبطت بأكبر كمية من البشر، معادلات دولية لها حساباتها التي لا يعرفها إلا رجال الأعمال المغلفة التي ما اجتمعوا

إلا على صفقةٍ ضد بني البشر، بحجة أنها سياسةٌ يزهقون ويضعون روح الإنسان داخل هذه الحسابات ألا ببس المخلوقات هم.

تُغَيِّرَ الحِرْبَاءُ جلدِها كلَّ حينٍ لِتَتَكَيَّفَ لِكُلِّ وَقْتٍ، أما البشر فعلامٌ يَتَلَوَّنُونَ كلَّ هذا التَلَوَّنِ، ألأنهم جُبلُوا على هذا التَلَوَّنِ منذ أبيهم آدم أما ماذا؟

لا يسلكُ الطريق الوعر إلا من كان يملكُ قلباً جسوراً، سيف لا يستطيع أن يدخلَ مداخلاً لم يسمع بها في كل سنين عمره، إنها مغامرةٌ صعبةٌ عليه وهو الفتى الذي لم يزل يسمع فقط، إن الحياةَ لهي مغامرةٌ فإما وإما، لا مجال أن تقع بين هذه الإماتتين، قرَّرَ سيف أن يعودَ إلى العراق وينظر فيما حوله، البؤس والفاقة والعذاب الذي يعانيه الأغلب من السكان كان شغله الشاغل، يتابعُ سيف أخبارَ إقتصاد العالم فيرى أن العراق واقعٌ في مكانه غير الصحيح، منزلة العراق لا بدَّ أن تكون بالمرتبة العشرين الأولى كاحتمالٍ أول ومرتبة ثلاثين كاحتمالٍ أقصى، أرادَ أن يقتحمَ وليحصل الذي يحصل بعدها، بيته لم يكن مشجعاً لمغامراتٍ مثل هذه إلا إنه كان جسوراً هذه المرة، عرضَ فكرة العمل باقتضابٍ، واكتفى بأنه سيصبح مسؤولاً في فرع الشركة لما رأوا من أمانته ومنزلته العلمية، فرح والده لأن ولده سيزداد راتبه ضعفاً، وهذا يستدعي أن يزيدَ مصروفه.

إتفاق بيروت كانَ ناجحاً، الإتفاقُ على الأموالِ كانَ يحتل المرتبة الأولى، مرتضى أصبحَ خبيراً دولياً في الشؤون القانونية، لم يكن هنالك شيء يصعب عليه، كأن خبراء القانون جعلوا القانون غصاً طرياً، أُطر القانون بقانون، بمعنى أنك تؤوّل القانون بقانون أقوى وأمضى، هذه هي لعبةٌ جديدة يعرفها فقهاء القانون، القانون وُضع للفقراء وليس للأقوياء، إنَّ قوةَ الذراع هي القانون الفصل إن كنت تملكها، وأما إن كنت ضعيفاً فأنت مضطرٌّ أن تلجأ إلى من يجلب لك حقل، أبرمَ مرتضى كل الاتفاقيات مع مسؤولين حكوميينَ يمثلون صنّاعَ القرار في بغداد، الادويةُ تجارةٌ رابحةٌ في كل زمان، والأسلحةُ تجارةٌ رابحةٌ على الدوام، هذا ما جعل العالم عليه أن يبدعَ في الإتجار بهما.

إذا كانَ هنالك سلامٌ دائمٌ فإنَّ تجارة السلاح ستبور بالكساد حتماً، وإذا لم يكن هنالك أوبئة تهدد الحياة فإنَّ تجارة العلاج لم تعد تنفع ولا تجدي شيئاً، إذن لنخلق الرزق ولنجعل العالم يتحرك، فإذا لم يتحرك ويتنازع ويمرض فإنه سيصاب بالجمود والسكون ولم يخلق البشر ليعيشوا بهدوء وطمأنينة، إن الحياة هي متحركةٌ وليست بساكنة، لا بدَّ أن نبث الحركة بها على الدوام، أن تخلق الأزمة هي فكرةٌ جيدة لكي يلجأ إليك البشر يبحثون عن الحل، هكذا كانت فكرة رئيس الشركة التي يعمل بها مرتضى، هذه الشركة هي شركةٌ تجارية تعمل في كل شيء كأنها تريد أن تستولي على كثير من باقي الاستثمارات وتخضع الجميع لسلطانها، كانت فكرة الشركة توسعية بامتياز،

لذا فسببُ التطور واضحة لديها من كثرة أفرعها وتخصصاتها، شركةٌ دوّائية هو الفرع الجديد الذي تود فتحه في العراق، إن العراق أرضية خصبة لقيام المشاريع، كلما كانت الدولة ضعيفة كلما كانت الفرص مواتية لقيام المشاريع، كانت الشركة تعرض مبالغاً طائلة لأخذ تواعيع مرخصة لهذه المشاريع، خسرت الشركة مليارات الدولارات في شراءِ الذمم فكم ستجنّي من الأموال إذن! هذا السؤال أثارني لأوّل وهلة، ولكنني سرعان ما أدركت أن ما تجنيه أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى ما تنفقه، أردتُ أن أكونَ منتفعاً لا ناقداً جباناً، لأن الشركة لن تقف عليّ ولا على خيراتي، لذا سعيت أن أجعل من نفسي حريصاً على التطوير والتقدم، الأرض أهم ما كانت تسعى إليه الشركة وحصلت عليها بعد سلسلة لقاءاتٍ مع مسؤولين في الدولة، سلوتي هي في أن أتخلصَ من الجبن الذي يستولي على فكري ومخيلتي، ووطنُ نفسي وأخبرتها بأني لا بدّ أن أصل إلى ما أطمح إليه منذ يفاعتي الأولى، أنا موظفٌ بسيط في مستشفى قدرٍ، لا أقوى على تغيير شيء أو إبداء الرأي في شيء، لم أنسَ كيف يعاني المواطنون الذين يراجعون المستشفيات الحكومية، أخرجت مُسوّدة السبل الاصلاحية التي عزمت على تطبيقها إن أوكلت إليّ مهمة إدارة مسؤولية الصحة في هذه المدينة.

الشهرة لها شهوةٌ لا تقلُّ عن شهوة الجنس وربما فاقت عليها أضعافاً، لأن لها بريقاً لا يقاوم وسحرٌ لا يجارى، لا يهم أن تكون الشهرة لعملٍ خيرٍ، المهم أن تكون مشهوراً عند الجميع، إنّ شهرة الباطل والظلم أحلى من الشهرة بالطيبة والمحبة، لأنها تجعل الناس يخافون منك ويتورعون رهبةً.

رجع سيفٌ إلى العراق محملاً بطاقة من المشاعر واللهفة لحيبة تسكن القلب ولها منزلٌ في وسطه، يذهبُ إلى المركز الصحي بكلِّ حيوية ويدخل وقد اعترته نشوةٌ من الفرح والبهجة، بدأ يشمُّ رائحة المكان الذي لم يكن إلا عطر خديجة، فهي لها حياةٌ مختلفةٌ قد لا ينسجمُ معها وربما لا يروق له أن يتقربَ لها أكثر مما هو قريبٌ، في كثيرٍ من الأحيان يُفضلُ ألا تهتم معرفة أحدهم من الداخلِ فرمما تصاب بالخيبة والدهشة التي ستثير فيك كثيراً من الاحباط، كن على بينة أن المظاهر تخفي أشياء عن الدواخل، ولو كشفت النوايا الداخلية للبشر لما بقيت حياة، لأننا سنجد أنفسنا في غابةٍ أو في حلبةٍ صراعٍ يراد منها أن ينتصر شخصٌ واحد لا أكثر، الأيام حُبلى بمجاذثٍ قد لا يروق لأحدٍ أن يبصرها ولكنها واقعةٌ لا محال سواء أرادها البشر أم رفضوها.

انتظرتُ حلول الساعة الثامنة والنصف صباحاً والذي هو نهاية موعد تسجيل الحضور، أقبلت بابتسامةٍ تسع الدنيا وما فيها، لم أكلمها بل حضورها الرائع جعلني أهدقُ فيها وأطيلَ النظر إلى قوامها الممشوق غضارة ونضارة، وقفت فُباتي بوجهٍ صبورٍ، رمت السلام عليّ، غبتُ في عالمٍ بعيد، إعترتني غشاوة وضللت عيني لكنها أحييت بصيرتي، رددتُ السلام وأنا لم أرفع عيني عن النظر إلى عينيها العسليتين الواسعتين وقد أحاطتهما بسورٍ دقيق من الكحل، تبادلنا الكلام وأخبرتها بسفرتي وكيف كانت بيروت، أخبرتها إذا تزوجت أني سأذهب مع زوجتي إلى بيروت لنقضي شهر العسل هناك، ابتسمت وقال بل خذها إلى اسطنبول أحلى وأوسع وأكثر سحراً،

ابتسمنا ودخلنا إلى المختبر وكلانا فهمم الآخر، من محاسن الصدف التي تأتي على حين غرة، أني وإياها كنا الوحيدين في المختبر في يومها لأن زملاؤنا الآخرون كانوا في إجازة، تشجعتُ وألححت بأني سأصارحها بأني أريدها زوجةً لي، أنهينا العمل الذي لم يتجاوز العشرة عينات فقط، جلسنا بقرب بعضنا البعض، بدأت أشرح لها ما أحب في النساء وما لا أحب، صرتُ أنظر إليها وأكلمها بكل ما فيها، بعد كثيرٍ من الكلام الفارغ والكاذب .. أخيراً نطقتهما ..

أحبك..

أحبك..

أحبك..

كنتُ كفناني يقفُ على منصةٍ إمتحانٍ أمام لجنةٍ من كبار متذوقي الفن، لحنتها تلحيناً عذباً، وأخذت أجرُ بالحروف جرّاً لأطرب أذنها بسحر وقع هذا الكلمة، خجلت واعتزت وجهها حمرة طاغية، لكنها لم تكن كباقي البنات تتظاهر بالخجل الذي لا تملكه، أخذت تكلمني وتحذرن وتعرفني بشخصيتها أكثر كمن يملي شروطه، النساء كاذباتٌ، يتظاهرن بالخجل، ولكنهن لا يملكن بعضه، حقيقةً صعبةٌ، أن تقفَ أمام امرأةٍ وأنت مُشبعٌ بأفكارٍ ضد المرأة وما زلت تراها عبارةً عن جيبٍ جنسي يروي ظمأ شهوتك.

يدخلُ الربيعُ حاملاً معه نسائمه الجميلة، يطلُّ على أرضٍ أصابها الجذب بعضاً من السنين، يقرُّ سيفٌ أن يدخلَ فيما دخلَ فيه صديقه مرتضى، العملَ الوظيفي لا يكفي وحده حياةً حرةً مُنعمَةً، بل لا بدَّ أن تحصلَ على عملٍ مساعدٍ آخر، كان المركز الصحي المكان الأنسب لكلِّ من يريد أن يخفي نفسه عن المسؤولية وحتى العمل، العقوبةُ أوجدت له حبيبة ستغيرُ من نفسه كثيراً، الحياةُ درسٌ وعبرةٌ ولكن قلَّ من تعلمَ منها واعتبر.

أرادَ سيفٌ أن يدخلَ إلى غرفةِ المختبر فرأى حسناً فارعةً القد، مستدقة الجسم، سلَّم فردت عليه السلام، عرفته بنفسها فإذا هي باحثةٌ ولديها بحث تريد أن تنال به الماجستير في علم الأحياء المجهرية، هذه الحسنة لا يليق بها أن تتخصصَ بعلمٍ كهذا، بل عليها أن تعملَ مدرسةً للتربية الفنية في مدرسةٍ للبنات وليس هذا العلم الدقيق المعقد!

بقي يتجاذب أطراف الحديث معها، عرضت عليه طلبها وزودته بطلبٍ من جامعتها لتسهيل مهمة بحثها، كل هذا التعارف والكلام وخديجة لم تأت بعد، أخذَ يكلمها عن الخصوصيات ويقترُب أكثر فأكثر لها، وجد إنها سهلةٌ، ووقعها في حبال شهوته ليس بالأمر المستحيل، هي التي أقبلت إليه لتروي ظمأه، فرصةٌ جميلة أن أتعرف عليها وأرتب موعداً معها، تتصل خديجة بصديقتها أم حسام المساعد المخبري في نفس المختبر لتخبرها بأنها لن تأتي اليوم وتريد إجازةً مرضيةً لمدة خمسة أيام، الموظفون الكبار لا يعملون بشكلٍ مستمر، كثيراً ما يتركون العمل للموظفين الجدد وينشغلون بأمورٍ أخرى.

تدخلُ أم حسام إلى المركز الصحي لتبصم وتسجل حضورها بسلامٍ وطلّةٍ على المختبر سريعة لتذهب مع صويجاتها لتناول فطور الصباح الذي يبدأ منذ الساعة الثامنة والنصف حتى العاشرة والنصف صباحاً، ولم تنهض الواحدة منهمٍ إلا لأن كل الأحاديث قد انتهت ولم يبقَ شيئاً، أما أبو علاء فإنه يأتي إلى المختبر يعملُ قهوة الصباح إلى زملائه الأربعة بضمنهم المعاون الإداري ويتحدثون عن الحياة والسياسة وكل شيءٍ وثم يتفرقون إلى أعمالهم الأخرى، منهم من يذهب لقضاء معاملةٍ في دائرةٍ أخرى ومنهم من يذهب لأنه يعمل في عملٍ آخر، ومنهم من يعود إلى أهله، ومنهم من يذهب لزيارة المراقدة الدينية في كربلاء والنجف وربما المراقدة الدينية في بغداد وسامراء، الرقابةُ غائبةٌ ولا رقيب، هنا كان يتساءلُ سيف كيف يمكن السيطرة على هذه المؤسسة؟

كانَ المكانُ مناسباً له ولهذا الباحثة، تأتيه في حدود الساعة العاشرة أي بعد أن يذهب أبو علاء وينشغل مع زملائه وتذهب أم حسام مع صويجاتها، في هذه الساعتين يكون المختبرُ خالٍ له ليبقى مع هيفاء، التي أقبلت عليه بوجهٍ صبور، أن تبدأ صباحك بهيفاء لا بدّ أن يكون يومك أجمل الأيام وأكثرها بهجة، أرادت أن تعرف نسبة الاصابات الفايروسية بين الريف والمدينة وتعمل دراسةً مقارنةً بينهما، كان بحثها إحصائياً، تجلسُ معه في مختبرٍ لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار في ثلاثة، الجميعُ منشغلٌ عنهما، الشيطانُ مطلٌ عليهما، هي تتوددهُ لأنها محتاجة إليه، وهو محتاجٌ لها لتروي عطش السنين وقحطها، العينات لا تتجاوز العشرين عينة في اليوم الواحد، بمعنى أنهما

يقضيان وقتاً طويلاً معاً، الكلام بعيدٌ عن البحث وعن الفايروسات وعن
المستشفى أصلاً

في اليوم الثاني من إقبال هيفاء عليه، أصبح يللمُّ بها حتى في لحظات النهار،
إنها تتمثلُ له أينما رمى بصره، كانت تتغنج بكلامها، وكثيراً ما حركت أمامه
شفتيها المرويتين بأحمر الشفاه والمطلية بأطيب أنواع العسل، صار يكلمها من
قلبه وليس بلسانه، لو طلبت منه أن يأتي لها بلبن العصفور لجلبه بخطف،
أخذت تجمع العينات التي يجري التحاليل لها، يومياً تجمعُ أكثر من عشرين
عينة وتأخذها إلى منزلها في مختبرها الذي أعدته لبحثها، في ثالث لقاءٍ
يجمعهما، بينما هو منشغلٌ بإجراء تحليل صورة الدم لأحدى العينات، فإذا
بها تقترب منه لتضع شفتيها بالقرب من شفتيه، وتحركهما ببطءٍ متعمدٍ،
يتحرك الجبلُ الأشم من سكونه، بان التعرق على وجنتيه على الرغم من
الهواء البارد الذي يكاد أن يحول المختبر إلى ثلاجة، مسحت وجنتيه وقربت
شفتيه من فمها، فلم يتمالك نفسه إلا وألقى نفسه يلصقهما معاً، أخذ
يمص الشفتين كعطشانٍ ووجد الماء بعد طول ظمأٍ، أخذ يكرع الماء بكل قوة
حتى أفلتت منه تغنجاً ودلالاً، عندها بدأ يعرف أن لهذا الطعم معنىً آخر
جميل .

أقبلت الأيام مسرعة وأتى مرتضى حاملاً معه مشروع العمر الذي ينتظره
سيف، يحتاج الأمر إلى معارفٍ يُسهلون الأمور ويرتبون الصيغ القانونية،
مديرُ الشركة في بيروت هو عضوٌ في البرلمان الذي لم يحضر جلسة واحدة
فيه، إنه يأخذ العضوية لتسهيل خروجه ودخوله محملاً بالأشياء المحظورة،

القانون ريككُ لأنه لا يكاد يحمي نفسه فكيف بأن يحمي الشعب! الأرض كانت هي أرضٌ تابعةٌ لعقار الدولة على ضفاف دجلة، المكان المناسب هو أن يقربَ من النهر، عامٌ ونصفه حتى أكتمل بناء الشركة، مع المختبرات التي ستعد لتحضير كثير من التجارب.

السلاح والعلاج والمخدرات، هذه الثلاثية هي عصبُ الاقتصاد الذي تتاجرُ به الدول العظمى أو المافيات، ولعلَّ المافيات هي دولٌ صغيرة بحماية الدولة الأكبر، هذه تحمي وتلك تُجبي وكلاهما يقتسمان التلاعب بمصير الشعوب المنكوبة.

أقبلت خديجة إلى الدوام بعد أن قضت أسبوعاً بإجازةٍ مرضية، أقبلت إلى المختبر بكلِّ حيوية ونشاط واضحين، هيفاء وصلت بعدها وهنا بدأ القلق يساوروني، الباحثةُ الاستاذة هيفاء، هكذا قدمتها إلى خديجة، نظرت إليها بريئة واضحة لي ولها، كأنها عرفت أنني أضمر شيئاً ما، بقيت هيفاء تثير غيرة خديجة، لم تكن تعرف أننا تواصلنا على برنامج الماسنجر وأخذتنا الشهوة إلى غاياتٍ بعيدة، كانَ يومٌ ثقيلاً عليّ، لم يهدأ قلقي حتى غادرت هيفاء وإلى غير رجعةٍ، من مساوئ أم محاسن المصادفات أنه كان اليوم الأخير، خديجة من يومها غيرت سلوكها معي ولم تعد كما السابق، هي فترةٌ لا تتجاوز الشهرين وستنتهي فترة وجودي في هذا المركز وسأعمل في مكانٍ آخر، أردت أن أتقدمَ رسمياً إلى خديجة وأطلب يدها إلا أنني كثيراً ما وجدتُ صداً ونفوراً منها، كلما تقدمت نحوها لم أجد إلا نفوراً، تركتها لتهدأ وتشتاق لي، إن

المراة لا بدّ أن تحنّ لمن يبذل الاهتمام والود لها وكنتُ كثيراً ما أبذل الكثير من ذلك.

أقبل مرتضى إلى العراق، دخله كضيفٍ خفيفِ الظلِّ، خرجَ منه فقيراً مُعدماً فعادَ إليه غنياً منعماً وصاحب مشروع كبير، العلاقاتُ السياسية كانت غاية في المنفعة حتى في الخصومات فإنّ هناك أموراً تُبرم بحسب مصلحة الطرفين، الخصامُ يذوبُ أمام المصلحة المشتركة والتنازلات تكون سائدة أمام بريق الأوراق النقدية.

العملُ الدؤوبُ كانَ صفة مرتضى منذ كان طالباً في كلية القانون في جامعة الكوفة، من يومها وهو يعلمُ أصدقاءه أهمية أن تكونَ منتجاً ومستثمراً لكل أوقاتك، أخذ يعدّ العدة من الأمور ليرتب أمور الشركة التي ستنافس كل الشركات التي تعملُ في العراق، أن تضع رجلاً في عملٍ كبير لا بدّ لك أن تحسب الحسابات حتى لا تضيع عليك الأمور، التقى سيف بمرتضى ليأخذ التعليمات منه، لأن مرتضى ذو بعد نظرٍ قرّر أن يُنشأ مركز أبحاث تخص تطور الشركة، إذا ملكت المال سيتوفر عليك الكثير من الجهد، لم يتعب ولم يبحث كثيراً إذ بإعلانٍ على صفحة الفيس بوكٍ أقبلت إليه أكثر من عشرة الالاف طلب، قبل منهم عشرة أشخاص، كان هو مدير هذا المركز أو الغرفة التي عملها إيجاد السبل المتطورة لعمل الشركة، أخذ هؤلاء الباحثون يمدونه بكلِّ ما من شأنه أن يطور عمل الشركة لتستفيد، كان رئيس الشركة قد وفر لهم صفقةً كبيرة مع الوزارة، هذه الصفقة العلاجية ستكلف الوزارة عشرة

مليون دولار، الوزارة هي ملكٌ لنا فلا تقلق، هذا ما قاله مدير الشركة لمرضى وهما يبحثان عن آلية التعاقد والشروط.

أريد أن أتزوج وأكوّن أسرةً لي، ولا أرى من النساء امرأةً تلائمني غيرَ خديجة، نحن متشابهان في كثيرٍ من الصفات فلا نختلف إلا في جزئياتٍ لا تؤثر، مرةً أخرى طلبت منها أن تبدي رأيها في الزواج، لم أجد ذلك النفور ولم أجد ذلك الدلال، كانت تغار مني وتمارس دورَ الحبيبة المدللة، أخبرت أهلي بأني أريد أتزوج من إحدى زميلاتي وكلانا نعملُ في مكانٍ واحدٍ وغرفةٍ واحدةٍ، أي لم يكن يجذب أن أتزوج موظفةً بحجةٍ أنهنَّ مختلطاتُ بالرجال وهذا ما يسببُ له حساسية مفرطة، أردت أن أبرهنُ لأبي خطأ رأيه لكنه لم يقتنع بكلِّ كلامي لأتركه وقناعاته وأمضي فيما قررت، الحب حياةٌ متجددةٌ كل آن، وبالحب تعيشُ بخيالٍ ترسمه لنفسك هرباً من واقعٍ لا يمكنك أن تصبر على مشاكله.

يقول مرضى: باشرنا في العملِ على تجهيز المستشفيات بمعداتٍ تحتاجها، أخذنا نُهيأُ المستشفيات بالأدوات والمستلزمات الطبية، بدأ التفكير الجدي لدى الشركة، أخذنا نبيع الدولة بأسعارٍ مناسبة لنجعلها لا تتعاقد مع غيرنا، صرنا نُجهز بعض العلاجات إضافةً إلى المواد، هنا بدأت تطفو على المشهد تحركات تعمل ضدنا، الشهرُ الأول كان مرجحاً لنا، ومرجحاً للدولة لأنها كانت تشتري منا بعُشر وتأخذ التسعة أعشار الأخرى محاصصة وقسمة بين المسؤولين، إذا أردت أن تستمر في هذا العمل عليك أن تسام وتعطي، لم نباشر بفتح الأفرع حتى يستقر أمر الشركة في بغداد ويمضي على عملها أكثر

من عام، أصبحت أعمل بنظام الخفر ليوفر لي ثلاثة أيام أفضيها في بغداد، بدأت الشركات المنافسة تكيد المكاييد ضدنا، مرتضى كان قلقاً منهم، لأنهم مستعدون أن يسلكوا السبل غير القانونية ليقوعوا الخسائر في الشركة، لا بد أن تغامر في السياسة، روح المغامرة لا بد منها، أخذ مرتضى يُقرب جهاتٍ مسؤولة ولها كلمة وقرار في الوزارة، أنا لا أُجيد فن المراوغة والمبادرة، ما زلت أنظر إلى مرتضى وأعجب من الكم المعلوماتي في القانون، رتب الأمور بصورة قانونية، كلما دخل في فج عميق وجد له مخرجاً قانونياً، سألته وهل القانون بهذه السعة ليشمل كل الحياة؟ ابتسم لي وقال: بل القوة هي التي تُسيّر القانون، وأنا الجاهل الذي كنت أظن أن القانون هو الذي يفرض نفسه، المستشفى الحكومي التي طردتني رجعت إليها أنا وخديجة، التحاليل التي تُجرى هي مما يطلبه المريض وليس مما يكتبه الطبيب، وهذه ميزةٌ تعجبتُ منها! أجريتُ بحثاً ذات يوم عن النسب الطبيعية لمن يجرون التحاليل، فوجدت أن أكثر من 80% نسباً طبيعية و 10% تعاني من اضطرابٍ ما نتيجة خللٍ في أحد أجهزة الجسم أو عضو من الأعضاء نتيجة سوء هضم أو تسمم أو حوادث، أما 10% الباقين هم مرضى الأمراض المزمنة وهؤلاء لهم حالاتٌ خاصة بهم، علام يدخلُ المرض بهذه الوفرة إلى المستشفى فضلاً عن الذين لا يأتون هنا، الأعدادُ كبيرة كأنهم في قاعة سينما لمشاهدة فيلمٍ من أفلام هوليوود! يأتي المريض ليجد حلاً لعلته النفسية وليست الجسدية، إن أكثر من تسعين في المئة من الذين يراجعون المستشفيات الحكومية هم من الطبقة الفقيرة ! الأغنياء لا يثقون ولا يعترفون بهذه المستشفيات التي ما دخلها مريضٌ إلا وزادت عِلته وما دخلها سليمٌ إلا وخرج منها وهو عليلٌ.

تغدو الأيامُ وتمضي بحسب ما تشاء وترغب، القدرُ هو الذي يحرك الحياة للبشر التي قَدَرَهَا لهم، بدأت الشركة بالعمل ومضت تنافس كُبريات الشركات الأخرى حتى خلال فترة لم تتجاوز الأربعة أشهر قفزت في مصاف الشركة العشرة الأكثر رأسمالاً، الفكرةُ والتجهيز الذي بدأت تعمل على ضوئه لم يرق لكثير من تجار الدولة الجديدة، الحكومات مرتبطةً بشكلٍ وآخر بشركاتٍ اقتصاديةٍ وإن أيَّ تنافسٍ سيسبب خسارة لا تعوض، التنافسُ في التجارة غير نزيه وبالأخص عندما تكون هذه الشركات مرتبطةً بالدولة، إذ إنها ستلجأ عاجلاً أم آجلاً إلى استخدام قوة الدولة لفرض نفسها على الآخرين، وكم دفعت الشعوب من جراء هذا التنافس بين كبرى الشركات، كثيراً من أنظمة الحكم خسرت موقعها نتيجة سوء أو فشلها في الحفاظ على مستوى الاقتصاد المالي والاداري لها، الشعوب لا تعرف ولا تدري ما يجري من تنافس في الأسواق العالمية بين هذه الشركات التي تنتمي لأنظمةٍ دولية، يُغلفون مشاكلهم بأطرٍ وطنية ليتعاطف الجمهور معه ويكون هو وقود التطاحن ويكون الضحية التي يجب أن تُسحق، الاقتصاد هو السبب الأكبر في كل الحروب التي فُرِضت على البشرية، الزعامة كانت هي الشهوة التي دفعت البشرية إلى التطاحن والموت منذ الخليقة وحتى اليوم وإلى أبد الأبد، أن تكونَ زعيماً هي شهوةٌ جامحة تقوى وتخفت عند الفرد حسب قوة شخصيته وميله لها، وقد عانى وما زال السواد الأعظم من الجمهور بسبب غرور وعنجهية الزعيم وكبريائه.

تتفقُ أُمي مع أُم خديجة على أمور زواجنا، ألححتُ على أُمي أن يعجلوا في هذه الأمور لأني أريد أن أنالَ القرب أكثر، خديجة تمثلُ لي الحزن الذي أرمي عليه بكلِّ همومي، والكيس الذي أضع به شهوتي الجامحة، كانت خديجة تخشى ان أشتهي مضاجعة غيرها حتى في خيالي وتغضب أشد الغضب عندما يأتي حدسٌ بأني مارست ما يُمارسه الشُّبان في لحظة إشتداد فورة الشهوة، أخبرتها بأني سأندُرُ نفسي لها بكلِّ ما فيّ، أردت الزواج لأني صرتُ أتخيلُ طيفها يلاحقني في كل مكان.

البوحُ الشفيف يعالجُ مشكلة التشظي والغربة الموحشة التي يعاني منها المرء، كنتُ كثيراً ما أبوح لها وأقص عليها من نبأَي أعجب القصص وأغربها، اسبوع واحد عرفت الاعاجيب من قصص النساء، هيفاء أرخصت لي كثيراً من الخصوصيات لقاء عينات أسلمها لها في نهاية التحليل، خديجة بقيت تعبت بها الغيرة أيما عبث، ولم أستطع أن أثبتَ لها إن هيفاء لم تكن إلا ضيفاً طارئاً ليس إلا ولكنها لم تقتنع بجوابي هذا. زواجنا كان فرضاً لا بدَّ منه لأني كنت أتوق إلى وصلها وأن أجمع معها بسريرٍ واحد، أسبوع وآخر وغيره وأنا أرى أنها حققت لي التوازن النفسي وأرضت رغبتي.

الكلمة مفتاح، للنفوس أفعالٌ وبكلماتٍ تُفتتح، لا بدَّ أن تكون الكلمة واضحةً سلسلةً متوافقةً مع النفس، الاتصال الذي تحدّثه الكلمات لا تحدّثه المواقف في كثيرٍ من الأحيان، القلوبُ المغلقةُ فإنَّ مفتاحها كلمةٌ.. كلمة لا أكثر.. ولكن يجب أن تكون هذه الكلمة هي التي تهزُّ القلب وتحدّث فيه

أثراً، أقبلتُ على مرتضى أدغدغُ قلبه وأثير فيه وعوده التي قطعها لي، كان متبرماً من هذه الشركات التي بدأت تعرقل عمل الشركة، التنافس غير نزيه بين التجار لأنه يعتمد أسلوب الربح والصدارة وليس أسلوب النفع العام، أخذ يرتب لخطئة يكون بموجبها بمأمنٍ من فساد هؤلاء، لم يخبرني بشيء مما يدور برأسه، لكنني أدركت أنه بعيد النظر وعميق التفكير، ولن يدخل في مأزقٍ حتى يعرف الخلاص منه قبل ولوجه.

السعادةُ الحقَّةُ هي بين أهلكَ ومحبيك، هكذا قُدِّرَ لمرتضى أن يعيشَ في غربةٍ مفروضة عليه، المالُ كان وسيبقى السبيل الذي تسعى إليه النفوس، كثيرون من يعتقدونَ أن المال أصلُ السعادة ويجلب الفرح ويبعد الهم والغم عنهم لكنهم بذلك مخطئون فهو الذي يجلب لهم القلق ويسلمهم إلى الوسواس التي تعبت بهم أيما عبث، دخلَ مرتضى إلى الشركة فطلب اجتماعاً طارئاً لمجلس الإدارة، اجتمعوا برئاسته، اخبرهم أن الشركة معرضة لأزمةٍ تهدد وجودها فما هم صانعون، الشركات الأخرى بدأت تعد العدة لتخفيض نسبة أرباحها، لكي تتصدر قائمة الشركات، أخذ المجلس يبحث وينقب ويناقش حتى إهتدوا أخيراً أنهم لن يستوردوا من هذه الشركات الاجنبية شيئاً، ستنشأ الشركةُ مصنعاً لتجهيز المواد الأولية التي تحتاجها الشركة، من الفور وبصورةٍ عاجلة بدأت الاتصالات لتسهيل إجراء هذا المصنع الذي سيوفر علينا الكثير من المبالغ التي كنا ندفعها إلى تلك الشركات.

كانت فترة زواجي من أجمل أيام عمري، لذت لي الحياة وتحمّلت، أريد ويراد مني ، بدأت أعمل على نظام الخفر أنا وخديجة ليتوفر لنا النهار نعمل فيه في الشركة التي بدأت ترى النور، العقلية التجارية تسعى دوماً إلى قيمة المال وليس إلى المال، وهذه ملاحظة لم أعرفها إلا من العمل في الشركة، أن تستورد الأدوية وتبيعها على الدولة يحتاج منك الكثير من السماسرة ليوفروا لك الغطاء، وهذا الغطاء سيكلف الكثير من الاموال، أني لأعجب إلى دماغ مرتضى الذي هو مدير رئيس قسم في هذه الشركة فكيف يكون دماغ صاحب الشركة إذن!

أنه يفكر دوماً ولا يركن إلى الهدوء والمتعة، كأن أيامه عمل لا غيره، صرث أشفق عليه مما أرى من جهده لكني أشفق على نفسي عندما أرى الأموال التي تقع بين يديه مما يجعله يُعد من أغنياء البلد الأوائل.

ربما لن يتم كل ما يرده بحذافيره إلا إن الأعم الأغلب سيتم كما مخطط له، اتصل بي وأخبرني مرتضى أن أكون عنده في الحال، وصلت إلى الشركة فوجدته مضطرباً، سألته فأجاب: إن الدولة بدأت تفرض قيوداً جديدة، وما الحل إذن؟ فقال لا بدّ أن ندخل الانتخابات؟ سألته عن الكيفية فقال: سندعم كتلة كاملة أو أكثر، كيف!

فأجاب بأن الغطاء لعملنا لن يتم إلا إذا كان لدينا تمثيلاً حكومياً، أصبح مكتبه يكتظُّ بكثير من المرشحين الجدد ورؤساء قوائم أيضاً، كانوا بحاجة لنا لنوفر لهم المال والدعاية والدعم وكنا بحاجة إليهم ليسهلوا لنا الاجراءات والعقود مع الوزارات، كانت وزارة الصحة لها حصّة مميّزة من الموازنة فسأل لعاب رئيس الشركة عليها، أخذ يبدلُ كلَّ شيء في سبيل أن يحصل على عقود تجهيز المواد والادوية، هي صفقة رابحة إن حصلنا عليها ولتكن لمدة ستة أشهرٍ لا أكثر، كتب مرتضى على ورقة أسماء الذين يُريدهم أن يمثّلوه في الحكومة القادمة، ذهلت كيف له أن يعرف من الذي سيفوز ومن الذي سيخسر، ضحك بصورة هستيرية، قال: بالمال نضع الاشخاص الذين نريدهم وبالمال نخرج من لا نريد، أريد أشخاصاً قلوبهم كزبر الحديد ولهم طموح كبير في البقاء في المنصب مدة أكثر، هؤلاء سيقدمون الكثير والكثير في سبيل أن يبقوا محافظين على مناصبهم التي سنضعهم بها، العمل المتقن يُكلف الكثير من التفكير لئلا يتشتت، نريد أن نعمل دون منافس، هذا لن يتم حتى يتم التعاقد معنا، أنا أسمع دون أن أفهم إلا إني لا أشك بقدره مرتضى على أن يذوب الجميع ويجعلهم طوع أمره وهذا ما عرفته من سيرته التي لم أعرف منها إلا بعض الشيء.

الحق أقولُ أي صرتُ أنمي نفسي بأن أكون من أولئك الذين يخوضون الانتخابات وينالوا العضوية أو منصباً في الحكومة الجديدة، تقربتُ إلى

مرتضى وأخذت أبين له كفاءتي وأني أهلٌ لهذا الاعتماد، ذهبت معه أينما ذهب وبقيت معه في أي مكانٍ يتواجد فيه، أصبحت كظله الذي لا يفارقه إلا عندما يأوي إلى النوم، أنا وخديجة نعملُ في المستشفى ذاتها التي أحلم بأن أكون مسؤولاً لشعبةٍ من شعبها فكيف لو أصبحت مديراً لهذا المستشفى كلها! خديجة كانت تريد مني أن أكون مثلها لا أفكر إلى بما هو أمام عيني، في الشهر الرابع على حملها رتبْتُ لها إجازة مع مسؤولنا، خمسة أشهر على الحمل هي مدةٌ كافية لإجازة الأمومة، لكني رتبْتُ الإجازة بصورةٍ أشبه بالقانونية، فقد حولت نظامها إلى الخفر وصرت أعمل بالساعات المخصصة لها وهكذا كان، أخبرني صديقٌ لي: لماذا لا تأخذ إجازات وتنتفع بها؟ كيف يا ترى؟ هنالك الكثير من الموظفين لا يريدون أن يعملوا بنظام الخفر ومستعدون أن يعطوا لقاء كل يوم مبلغاً ليس بالقليل للبدل الذي يكون خفر في ساعاتهم، فرحتُ وهللتُ وهكذا أمر، أعطيت نبأ إلى بعض زملائي لمن يود أن أكون بديلاً له مقابل مبلغاً متفق عليه مسبقاً.

الصحةُ كنزٌ، من ملكه فقد ملك الخيرَ كلَّ الخير، هكذا كان جدي يتحدث، وكنْتُ أظنُّ أنَّ بالمالِ تملكُ كل شيءٍ لكني عدلتُ عن رأيي هذا، الانباء تصلُ بأن الاقتصاد العالمي والاوربي خاصةً سيعاني تدهوراً على كافة الصُّعد، هذا يستدعي أن يُعادَ النظر إلى حروبٍ مختلفة جديدة لتعيد معادلة الاقتصاد إلى هدوءه واستقراره، كأنَّ علاقةَ الاقتصاد بالحروب علاقة مترابطةٌ

إذ بالأول يكون الثاني! مرتضى أصبحت لديه علاقات خارجية واسعة المدى وعلى مستوى رؤساء دولٍ أو قياديّ أحزابٍ لها تمثيلٌ في السلطة، بحكم عمله وقُربه من رئيس الشركة تكونت له معارف وعلاقات فمن خلالها أصبح يعرف عن المخاضات التي تحصل هنا وهناك نتيجة الصراع السياسي، لذا كان يعرف أن هذه الدولة ستمُر بهذه الأزمة وأن تلك ستمُر بتلك الأزمة وكأنه يدرك علم الغيب الذي لا يعرفه إلا الله تعالى، ما زلتُ صغيراً على تحمّلِ المسؤوليات، مرتضى لم يقربني أكثر إليه ولعلّ في هذا علّةٌ هو أعرف بها، أنا أريد أن أتولى منصباً في هذه الشركة التي ستتربّع على اقتصادٍ عالٍ جداً، العملُ المستمرُ يجعل المرء لا يعرف أن في الحياة بعضُ مسرةٍ، أخبرته بأني صرْتُ منهكاً من الخفارات وبديل الخفارات وأتمنى أن أنال زوجي عملاً يضمن مستقبلنا، ابتسم وقال: من غدٍ ستباشران أنت وزوجك في العمل في هذه الشركة، قبلته بكلّ لهفة لفرحتي وسعادتي، زوجتي ستعملُ في الشركة وسأمسكُ الساعات الخفر التي عليها، وأنا سأمسكُ خفاراتي وأرتبها مع زميلٍ لي، الشركة دخلناها طمعاً في مكانٍ أرقى ومنصبٍ أرفع، زوجتي أصبحت مسؤولة في مكتب الصادر والوارد وأصبحتُ مسؤول مكتب مرتضى، وهنا بدأت تلوح لنا بشارات الخير والمستقبل الذي نحشاها بصورة واضحة، لأن راتبنا لا يكفي لنشتري بيتاً وسيارةً نقلنا في قضاء حاجاتنا.

فجأة وإذ بي أرى أنّ باب مكتبي قد طُرت طرَقاً خفيفاً، سمحتُ للطارق بالدخول، فرأيتها هيفاء، الباحثة التي عرفتُها منذ مدة في المركز الصحي في الريف، ابتسمت بإغراءٍ كعادتها وأخذت تعبت بشفتيها وتزيد النار في جوفي، نهضتُ من مكتبي لأجلسَ قبالتها، لم أهُض من مكتبي لأي أحدٍ ولكن عندما تأتي حسناء كهيفاء لا بدّ أن تقترب منها أكثر وأكثر، كانت طالبةً في كلية العلوم وقد نالت شهادة الماجستير وقدمت على الدكتوراه، فأكملت المرحلة الأولى منها، أقبلت تطلبُ فرصة العمل التي تسعى لها منذ فترة البكالوريوس، إن المرأة يُستعانُ بها لقضاءِ حوائجٍ صعبةٍ ومعقدةٍ، لديها القدرة على إنهاء مسائل عالقة، كانت تتكلم وأنا أنظر إليها كحوريةٍ هبطت من السماء لتطفأ لهيب روجي من الداخل، فرحتُ بأني سأنال شيئاً تحسرت روجي عليه حسرات وحسرات، أخبرتها بأني سأبذلُ غاية الجهد لتكون لها وظيفةً هنا وبالقرب مني، ضحكت بعدوبةٍ ساحرة أظهرت نصوع وتألؤاً أسنانها الناصعة كأنها أسنانٌ قد طُليت بالحليب، حمرتها مرسومةً بخيطٍ رفيع على طرفي الشفتين، مما زادني إغراءً بها هو أنها قد سمحت للعباءة أن تفتح المجال لعينيّ المحدثين إلى ما خفي وراء هذه العباءة، رأيتُ كأنّ رمانتين بحجم الكف ومضغوطٌ عليهما بوضوح، صرتُ أحرق وفي كاد أن يجف، تكلمني وأنا شارد الذهن دون أن أعي حرفاً منها، خرجت وقد اتصلت بمرتضى في الحال أني وجدت له الموظفة التي طلب أن تكون معه في

الحسابات، تركت لي ملفها الشخصي ومعاملتها كاملة وأخبرتها بأنها ستبدأ الدوام من غد.

وليد لم يجبد أن يعودَ إلى العراق، مكانه وفر له ما يطمح إليه، إنه هناك مسؤولٌ يعتمد عليه فعلاً يأتي إلى هنا ليكون موظفاً بسيطاً، الانتخابات أخذت حيزاً كبيراً من تفكير وشغل الشركة، لأن الاعتماد على الشخصيات التي ستقدم لنا سبل الترخيصات والعقود الموثقة دون ملاحقة قانونية أو نزاهة، اجتمع مرتضى برؤساء شركات، أنه سيوفر الدعم لمجموعة وكانت تضم خمسة أعضاء في البرلمان، وافقوا على هذا الرقم وقد تم التعاقد على أن يدفع لهم ما يريدون، هي غنيمة لا بد أن تقتسمها مع غيرك وإلا فإنهم لن يدعوك تأكلها وحدك حتى لو أضاعوها، هكذا فعل الكثير من السياسيين إذ أنهم إما أن يكون لهم نصيبٌ وإما أن يعبثوا ويحرموا غيرهم، العراق منجمٌ لناخذٌ منه ما نستطيع أن نعرف، هكذا هم يقولون ولكن مرتضى يريد أن يستثمر هذا المنجم ليحني منه شيئاً آخر وآخر، أن تتحكم بالاقتصاد لا يحتاج منك القوة وحدها بل يحتاج منك الخبرة أولاً في استثمار قوتك، الفجوة ستكبر وتختلف تراكمات وراءها فلا بد من سعيٍ حثيث وعملٍ سريع لتدابير تراكم الأزمات التي ستعصف بالبلد ولا شك في ذلك، خطة البناء ما زالت غير واضحة حتى تسفر الانتخابات عن المحسومة بنسبةٍ تصل إلى التسعين في المئة، عقد الصفقة لن يتم إلا بموجب قانوني، القانون واسع

ومفتوح، إن الذين وضعوا القوانين وهم الأقوياء قد جعلوه مفصلاً ومتسعاً ليجدوا مخرجاً وتأويلاً لكل أزمة تواجههم، القانون لا يتمكن أن يصل إلى عتبة أبواب الأقوياء والاعنياء بالتحديد أما الفقراء فإنه يجب أن يتدخل في كل شؤون حياتهم! هيفاء أصبحت مقربة من مرتضى أكثر، هي ماكرة بالتقرب إلى أصعب الرجال، أصبحت مستشارة له وتقضي أوقاتها طويلاً في العمل معه، حتى أنهما أصبحا يخرجان معاً ويقضيان العمل معاً، ربما هذه العلاقة محض علاقة عمل لا غير! لكن أيعقل أن الحديد لم يلبس لمرة واحدة على الأقل! وبالأخص أن النار المسلطة عليه ذات حرارة عالية لا تقاوم! لا يهمني ما تكون هذه العلاقة، كنت أقولها لأصرف عن نفسي الفشل في نواها، فقد كنت أشتهيها وبالأخص أني عرفتتها قبله وأنا الذي أتيت بها له، لم أكن أعرف أنها ستقرب منه كل هذا القرب، لأتركها تفعل ما تشاء فهي امرأة وتريد أن تصل لغاياتها وتحقق طموحاتها ولتستخدم ما تشاء من الصدف، كثيراً من النساء قد يعرضن أجسادهن ليصلن إلى مبتغاهن، وكم رأيت في الجامعة شبيهات بهيفاء، عضه من الشفة بميوعة تنال إحداهن أعلى الدرجات! الرجال ضعفاء أمام النساء وبالأخص من يجدون أنها مبتذلة، يتلذذون بها ويشتهون وصلها والعلاقة الحميمة معها.

الأشخاص الذين يتحكمون بمصير الناس قليلون، هؤلاء القادة يتحكمون بمصير ومستقبل شريحة واسعة من الجمهور، إن كانت القرارات صائبة أو

خاطفة فهي تأخذ حيزاً كبيراً في تفاعل الحياة العامة للأفراد، كانوا بعض الأشخاص أثروا وتركوا عظيم الأثر في مسيرة التاريخ ومصير كثير من الناس، هؤلاء الرجال سواء كانوا طبيين أم سيئين المهم أنهم تركوا بصمات تدل عليهم على إنهم أحدثوا أثراً لن يمحي أو يُدرس، مستر دايفيد هو رئيس مجموعة الشركات العالمية الكبرى لصناعة الأدوية، يعدُّ من أغنى رجال العالم، إنه يتحكم بحياة كثير من البشر، المخترعات التي تصنع العلاج كلها خاضعة تحت إشرافه شخصياً، إن الاقوياء اتفقوا واتحدوا على أن يمتصوا من الفقير قوت يومه بل وصل الحال بكثيرٍ منهم أنهم قرروا أن يشاركوا الفقراء لقمة الخبز وإن لم يتمكنوا عمدوا إلى أخذها بالقوة أو الحيلة، ديدنٌ قديم بين البشر أنهم يعتمدون في معيشتهم على بعضهم البعض، الكل يأكل في الكل، والقوي يأكل بالأضعف منه والأضعف يأكل بالأضعف حتى ينتهي الحال بأن يأكل الفقير نفسه! مما اتفقت عليه كل الأنظمة القوية والشركات الكبرى أنهم يبيعون الناس الحياة بمبلغٍ من المال، إن لم تعطِ لنا المال سلبنا لك صحتك وجعلناك فريسة للأمراض الكبرى، من سنن الحضارة أنها لا تحب السكينة ولا الركون إلى السلم، بل يعد السلم والسلام مصطلحات لا تعرفها وغريبة عنها وعن سُننها، تريد الحضارة الحرب المستمرة، الصراع الدائم، العمل الدؤوب، السعي الحثيث، كل هذه الصفات هي ما تسعى إليه الحضارة، تقول الحضارة عن نفسها إني أريد أن أوفر لكم الحياة السهلة

البيسطة وأن أختصر لكم العالم بقرية صغيرة تتجولون فيها كيفما شئتم ومتى ما أردتم، إلا إنها مأكرة، مخادعة، كاذبة، لا تملك الضمير، ولا تعرف من قيم الانسانية أية قيمة تذكر، هي براقّة بثوبٍ يقطر السم الزعاف، غلفت جسمها بثوب يشع بياضاً ويشرق نوراً إلا أن قلبها أسوداً فاحماً وطعمها مرّاً حنظلاً، إنها منتصرة على كل حال وفي كل زمان، الحياة لها طوع أمرها، الحياة ماضية لا تريد أن تقف ولا تريد أن تلتفت إلى ورائها، سيرورة الحياة أن تسعى للأمام وربما يعد هذا من مساوئها أو حسناتها؟ مستر دايفيد قرر أن يهيمن على كل قطاعات الصحة في الشرق الأوسط، ويسعى أن يعطي العلاج مقابل الغذاء أو الصحة بعد أن صعب عليه غيرها، أخذ يفكر بأن يجعل العالم يسعى إليه طراً ويخضع إليه بخشوع وإذلال، جمع الخبراء والعلماء على أن يهيمنوا بشركاتهم على أن يكسروا اقتصاد تلك الدول التي بدأت تسعى لفرض نفوذها على الباقين، إن الزعامة الدولية حلم يسعى إليه دوماً، يرى مستر دايفيد أن الشركات الخمس الكبرى التي تتحكم في اقتصاد العالم أصبحت تنافسه منافسة شرسة، كلما تقاربت موازين القوة بين الأقوياء كلما لجأوا إلى قيم دونية تؤذي الجميع، كلما كانت القوة متقاربة كلما لجأوا إلى وسيلة أكثر وحشية ليخلصوا من ندهم، هكذا هم الأقوياء، الزعامة كلفت وما زالت وستبقى تكلف الناس الكثير الكثير، سابقاً كانت الأرواح تقل وتكثر حسب شدة النزاع بين الزعماء لئيلها وأما اليوم فإنها تكلف أكثر

وأكثر لأنها أصبحت دولية وتكلف شعوباً وأممًا، كانت الشركات الخمس سبلاً تهيمن من خلالها على مصير الشعوب والعالم، لكل شركة منها مورد من خلاله تمتص عرق جبين الانسانية المعذبة، هذه الشركة مختصة بالأدوية وتلك بالسلاح وتلك بالأموال وتلك بالنفط وغيرها بالذهب، المهم هذه الشركات لا يكفيها أن تتحكم بموردها بل هي تسعى أن تمد نفوذها إلى غيرها، القوة بدأت تتقارب في عناصرها وأصبح ميزان القوى متقارباً بينهما، أخذ كلٌّ منها يلجأ إلى وسيلة يجعل من نفسه يتصدر غيره، شركات السلام بدأت تنشر النزاع والعنف بين الشعوب والأنظمة وأخذت تنصب أنظمة عميلة وفسادة ومستبدة لتجعل الهوة كبيرة بين الشعوب وبين هذه الأنظمة لتبدأ الحرب بينهما، هنا انتعشت شركات صنع الأسلحة، إنها تتفنن في صنع سلاح أكثر تدميراً من غيره، تعملُ جاهدة مستنفرة كل طاقاتها وإمكاناتها لخلق وإنتاج سلاح بإمكانه أن يُدمرَ أكثر ويقتل من البشر أكثر، وشركات الأدوية بدأت تتفرج على ندمتها الكبرى وهي حانقةٌ عليها غاضبةٌ بشدة، تفكرُ في ليلها ونهارها عن وسيلةٍ تمكنها من الوصول إلى قوة شركة السلاح التي بدأت تتربع على عرش وزعامة العالم لما يدخلها من الموارد المالية الكبيرة، إن تخلقَ الفوضى وتبيع السلم على المتنازعين هي عمليةٌ تمارسها وحوش لا تعرف من الآدمية شيئاً، بدأت شركة الأدوية تفكر جاهدة في عملٍ أو مشروعٍ يعيد لها كفة التوازن مع ضررتها الكبرى، بعد السعي الحثيث

والتطاحن بين الشركتين اهتدت أن تخلقَ الوباء في هذا العالم لتجعل منه يقعَ فريسة لها ولما تسعى إليه، ماذا نرمي العالم، السلاح البيولوجي ربما يؤذينا نحن فلنفكر بغيره إذن! هكذا كانوا يفكرون.

سمعتُ هذا الكلام من مرتضى أثناء معرفته برئيس الشركة الذي بدوره كان أحد وكلاء المستر دايفيد الذي يرأس الشركة الأم، دُهلّت من هكذا تفكير يفكر به مستر دايفيد وشركاؤه، إنهم يسعونَ لتدمير البشرية بهذا النزاع الذي سيؤدي إلى كارثةٍ تدمر البشرية كلها، كان مرتضى قلقاً مما يفكر به أولئك، لكنه لا يملك قراراً حيال هكذا أمور، بل إنه مكلفٌ أن يسعى لإيجادِ طرائق تسعى لتطوير الشركة ومد نفوذها في كل العراق، قال مرتضى: إنّ شركة الأدوية العالمية التي مقرها في إحدى الدول الخمس العظمى قررت أن تلوي ذراع شركة السلاح، شركتنا السلاح والأدوية هما الأكثر اقتصاداً وأكبر مورداً بين باقي الشركات، العصر الحديث شهد كثيراً من التنافس بينهما، لا تقبل إحداهن أن تكونَ ضررهما أكثر هيمنة منها وأكثر أموالاً، إذا كانت شركة السلاح معيشتها على الحرب ولن تعيش في الحياة الهادئة المسالمة لا بدّ لشركة الأدوية أيضاً أن تخلقَ ما يجعلها كضررتها!

هنا بدأ التفكير في خلق الأزمات، ليلجأ العالم إليهم ليخلصوهم من الأزمة، إنها أزمةٌ كبيرة، قاسية، خطيرة، تهدد الحياة البشرية في الصميم، لجأت شركة

الأدوية إلى بثّ روح المهمة في العلماء الذين يعبثونَ في حياة الإنسانية، هؤلاء فكروا وقرروا أن يجدوا وباءً يشل حركة البشرية ويهدد العالم أجمع، هنا ستتصدر الشركة العالم وتهيمن عليه وتتحكم به، سخرت الشركة إمكانياتها واستنفرت من الدولة التابعة لها الكثير من الأشياء لتحقيق الغاية الكبرى، الدولة سخرت الكثير من وقتها وتفكيرها في سبيل توفير كل ما تحتاجه هذه الشركة، إن نجاح الشركة يعني هيمنة الدولة على العالم اقتصادياً وجعل مصير الشعوب بيد هذه الدولة.

كلّما تطور الفرد ثقافياً وازدادت قيمة المعرفة لديه كلّما تطور النظام الاقتصادي له، إذ أن المستوى الاقتصادي والتطور الثقافي على علاقة مترابطة إذا تطور الأول لحقّ به الثاني، وإذا أحقق وتدّي الأول تدّي وضعف الثاني، اقتصاد الفرد يترتب بمدى ادراكه للقيمة المالية التي يملكها وكيف يتصرف ويستثمر هذه القيمة، العملة الورقية ليس لها قيمة إن لم تكن بيد من يستطيع أن يوفر لها قيمة اقتصادية.

إنّ النزاع بين هذه الشركات يشبه النزاع بين القط والكلب والفأرة، إذ في ذات يومٍ مرضَ الكلب فلجأ إلى القطة يستميلُ ودها ويطلب منها أن تجلب الدواء له، مضت القطة إلى غير بعيد، وأخذت تسمع وترى ماذا يقول الكلب عنها في سره، كان يتوجعُ ألماً، ويصرخ من شدة الألم، تأخرت كثيراً

عليه، أخذَ يتململُ حتى بانث عليه علامات السّأم والضجر أخذ يردد ما أقبحني إذ أطلب من القطة لتجلب لي الدواء، هنا خرجت القطة لتقول له: ما أقبحك إذ لم أغب عنك إلا قليلاً حتى صرت تتكلم ضدي وتصفني بأبشع الصفات فلن أجلب لك الدواء وأصنع ما أنت صانع، أخذ يُقبّل بقدميها متوسلاً أن تجلب له الدواء، إنه يأن من الوجع وبجاجةٍ إلى الدواء، كانت القطة تتبختر أمامه بخيلاءٍ واضحٍ، هناك ظهرت الفأرة لتسأل عن أحوال صديقها الكلب، كان الكلبُ يحميها كثيراً ويقف معها في أيِّ معركةٍ تحدث بينها وبين القطة، سعت إليه لتسأل عنه، طلبَ منها أن تجلبَ الدواء له، مضت مسرعة وبأسرعٍ من البرق عادت بالدواء إلا إن القطة اعترضت طريقها وأخذت منها الدواء وضربتها، هربت الفأرة ومضت القطة تتبع أثرها حتى أبعدها بعد سيل من الضرب على ظهرها، عادت القطة بالدواء ووقفت أمام الكلب وهو مسجى يشتكى من الألم ويصرخ من شدة الوجع، أخذت تساومه على أشياء كثيرة حتى لم يعد أمامه إلا بيته، أخبرها بأنه لها، أمضت العقد معه، جردته من كلّ شيء، بقي لا يملك إلا روحه وجسده الضعيف والمريض، أخذت تعطيه الدواء بشكلٍ تدريجي ولم تعطه كاملاً، خرجَ الكلبُ من البيت وبقيَ في الخارج يتوسل بها لتعطيه الدواء ليشفى كاملاً، ولكنها كانت تقول في سرها: إن أعطيتُهُ الدواء سينهضُ ويطردني من البيت ويسترجع كل أملاكه بالقوة ولن يعترف بالعهد والسندات التي

أمضيته عليه، بالقوة تستطيع أن تحصل على كل شيء، تستطيع أن تأخذ وتعطي وتجرد ما دمت تملك القوة، لذا لا بد أن يبقى الكلب عليلاً فعلته خيرٌ لي ولأصدقائي، لأنه إن نهض لن يبقى لنا وجود يُذكر.

يسود القلق المشهد، إنَّ القادم قد لا يسر أحداً، إنَّ اللجوءَ إلى حربٍ خفية هو وسيلة يتقنها أولئك الكبار الذين لا يهمهم إلا أنفسهم وأموالهم، كنتُ أبتغذب الكثير من الاحاديث مع مرتضى ووليد فنخوض الكثير من التساؤلات، الشركة لم تحقق لنفسها الربح الذي كانت تأمله، مستر دايفيد قرر أن يعيد التوازن الاقتصادي للشركة، بدأت الشركة تقدم عروضاً للدول لتتعامل معها، كان شعار مستر دايفيد أن تريح قليلاً خيرٌ من أن تخسر الكثير، هذا بعكس ما تقرره باقي الشركات، كان مجلس الادارة قرر أن يلعب دوراً في أزمةٍ يخلقونها، فجأةً وعلى غير موعدٍ يقررون ألا يجهزوا وزارة الصحة بما هو متفقٌ عليه، لنخلق المشكلة، الكل مستفيد، لا أحد سيجرؤ على أن يقاضينا ما دام قابضاً منا الكثير، سنهدد من يفتح فمه أن نكشف الاوراق ونعلنها إلى الجميع، جهزت الشركة الوزارة بربع ما هو متفقٌ عليه، تركت الفوضى والاحراج في عمل الوزارة، الوزارة ليس أمامها إلا أن تتعاقد مع شركة أخرى وإلا حصلت الكارثة التي ستهدد وجودهم على كرسي المسؤولية، عوضت الشركة ما خسرت، وجنت الكثير مما لم تحلم به، بسرعةٍ ودونَ دراسةٍ تعاقدت الوزارة مع شركةٍ أخرى على أن يسدّد المبلغ المتفق عليه

شكل أقساط وتكون كل نهاية شهر، أمضي العقد على هذا وحسبت الوزارة أنها انتصرت إذ جعلت الشركة لن تستطيع أن تحرب وتتصل عن العقد، كانت هذه الشركة هي الفرع الجديد الذي فتحه مستر دايفيد والذي يرأس الفرع مرتضى صديقي، أخبرني بذلك عن زيارتي المستمرة له في مقره الكائن في بغداد.

أريد أن أحصل على منصبٍ أرفع من هذا، أنا لم أعد أقبل أن أتساوى مع هيفاء، هيفاء تملك القدرة أن تذيب الرجل ويخضع لإغرائها ودلعها الناري، مرتضى أصبح مولعاً بها و لا يذهب إلى مكانٍ إلا وقرر أن تكونَ رفيقة دربه ومشواره، صرْتُ أمقت هذه العلاقة التي أصبحت تثير في الكثير من الحنق والغیظ على مرتضى وعليها، إنها تركتني ومضت إلى مرتضى تتقرب إليه أكثر فأكثر، صرْتُ أراقب تحركاتها وأصبح لديّ حدسٌ كبير أن لها خطة تريد أن تصل إليها بأيّ وسيلةٍ.

بدأت شركة الأدوية تعد العدة لخطة تلوي بها ذراع باقي الشركات، أن تهيمنَ على مصير الشعوب هو حلم يراود الدول والأنظمة القوية، لا يهم كم سيدفع العالم ضريبة هذه الشهوة، المهم أن تصل هذه القوة إلى ما تطمح إليه، لكرسي الزعامة بريق لا يقلُّ عن بريق المال، المشكلة الكبرى التي سيعاني منها شعوب العالم الفقير هو أن هؤلاء الذين تقاربت عناصر القوة

فيما بينهم وتقارب الدخل الاقتصادي فيهم أصبحوا يشكلون خطراً على باقي الشعوب، هذه الانظمة كلما تقدمت في التقنية أكثر كلما أصبحت أكثر وحشية وتسببت في ضرر العالم أكثر، كأن الحضارة لا تكون إلا على أرواح الشعوب المضطهدة والمنكوبة، إن لم تكن قوياً فلا ينبغي لك أن تقف في طريق الأقوياء بل لا ينبغي لك العيش بقربهم حتى!

العمل في المستشفى الحقير والقدر لم أعد أطيعه، قررت أن أذهب للعمل في المراكز الصحية لكن إدارة المستشفى لم تلبني طلبي هذا، الموظفات في الدوائر الحكومية يجدن الوظيفة متنفساً لهن ومورداً يجعلهن في غنى عن الرجل، إلا أن الرجل لديه ما لا يُستغنى عنه!

المواطنون الذين يدخلون المستشفيات الحكومية ليس لهم ثقة بأي شيء يقدم لهم، إنهم على علاقة سلبية بالموظفين لأنهم يجدون غلظة وخشونة واهمالاً وروتيناً متعمداً، قد يموت المريض ولا يلتفت إليه أحد من الموظفين وقد يلاقي الكثير من الذل أهل الميت لإكمال معاملة شهادة الوفاة وحتى الميت لم يسلم من عذاب الموظفين.

اتخذت قراراً لا رجعة لي فيه، صرتُ أعمل في شركة مرتضى للأدوية والمستلزمات الطبية التي لها أفرع في بيروت والعراق والأمارات وفرنسا وأميركا وكندا وأستراليا، كنتُ أتمنى أن أنقل إلى مكانٍ خارج العراق، نفسي عافت

أي شيء يذكرني بالعراق ، أريد الخلاص ولو براتبٍ يكفي لسد الجوع، المهم أن أغادر، أوطاننا بدأت تضيق بنا ولم تعد تتحمل ثقلنا ونحن نمشي على جسدها، كيف لي أن أقنع مرتضى بأن يوفر لي سكناً في إحدى هذه البلدان؟ دخلت على مرتضى بعد أن أخبرته بما عزمت عليه وهو تركي الوظيفة الحكومية أنا وزوجتي، فرح مرتضى وقال: إن الوظيفة الحكومية لا توفر لك الحياة التي تنشدها إنها مجرد تمنع عنك عائلة الجوع ، وتوفر أقرص الخبز.

إذا أردت أن تعيشَ بما تحلم وتشتهي عليك أن تجرب العمل الحر والتجارة الراحجة، قال: إنه سينقلني إلى بيروت لأنني أجيد اللغة العربية وأفهم الخطابات ولا بدّ لي أن أتقن اللغة الفرنسية والانجليزية إن أردت أن أنطلقَ إلى الفضاء العالمي، رتب لي إجراءات نقلي إلى فرع الشركة في وسط بيروت، ووفر لي السكن في شقةٍ تقع بالقرب من شارع الحمرا في العاصمة بيروت، اتصلت بوليد الذي انقطعت عنه لمدة طويلة من الزمن لأسبابٍ يطول شرحها، تركت هيفاء لمرتضى ومضيت إلى بيروت، أصبحت أتروح بين النجف وبيروت بحكم عملي، أصبحت ألتقي زوجتي أسبوعين كل شهرين، ضاقت وملّت هذا الوضع إلاّ إنني خيرتها بين القبول بالوضع الحالي أو الانفصال ولها الحرية بأن تأخذ ولدي معها إن أرادت أم تتركه لي، لكنها قبلت بأن تقبل بهذا الوضع خشيةً أن تعيش الذلّ والهوان، كثيراً ما كانت تقول لي: إن المرأة

لا تستند إلا على زوجها، لذا قررت أن تبقى وألا تثير في ما أكره، نفسي مولعةً بالسلطة والحصول على الواجهة التي يسعى الجميع لها، منهم من يتخذ السبل الخبيثة ومنهم من يفتح له الحظ ذراعيه ليحيطه بكل ما يطمح إليه.

صرتُ أعيش بالشقة نفسها التي ينام بها وليد، أصبحتُ لا أشعر بالوقت نتيجة العمل المستمر منذ الساعة صباحاً حتى الخامسة مساءً لقاء الفين دولار في الشهر، عندما تكثر الأموال يبدأ المرء إما بإنفاقها على ملذاته أو استثمارها، قررت أن أتحمم بشهوتي ولذتي وأصبرها لغاية بعيدة ستنال بها كل ما تريد، كانت النفس تتوق لكل ما يلد لها وكم كنت أعاني من عطشي إلى الجنس حتى صرت أشتهي كل من وقعت عيني عليها وتحدث معها، أن تصبر نفسك عن الجوع هو شيء عظيم أما أن تصبرها عن النأي عن الجنس هو شيء أعظم وأعظم.

فترة وجودي في بيروت عملتُ كلَّها حتى أني أقضي وقتي بين اثنين لا ثالث لهما، العمل والنوم، الأبناء تصلني يومياً عن أي شيء جديد فيما يخص العمل، وليد تقدم درجات كثيرة عني وأصبح معتمداً لمرضى في كثيرٍ من الأمور، أما أنا لأني مؤمنٌ بأن الوظيفة الحكومية خيرٌ وأبقى من العمل الحر فقد خسرتُ الكثير، كثيرون ممن قرروا العيش في الغربة لقاء أن يجعلوا من

أنفسهم مشاريع للتطوير، بدأوا من الصفر ولكنهم أصبحوا من الأثرياء ورجال الأعمال المميزين، صرثُ أضع من شخصية وليد الشخصية التي يجب أن أقتدي بها، فهو بدأ كمرشدٍ سياحيٍّ بشركةٍ تعطيه مبلغ أربعمئة دولار في الشهر، لكنه وصل إلى مرتبة أخذ يجني في الشهر خمسةً الآلاف دولار!

أن تكبح جماح نفسك وتصدها عما تشتتهي وترغب يعد وسيلة مهمة لتمضي في تطوير وإغناء نفسك، مواقف ورؤى وشخصية مرتضى ووليد كانتا مضربَ المثل لي في النجاح الذي أود أن أصل إليه، بإمكانني أن أصل إلى ما وصل إليه وليد ولكن هل أصل إلى ما وصل إليه مرتضى؟

يقول مستر دايفيد أنه ستبدأ معركة شرسة بين الشركات الخمس، كلُّ واحدة تريد أن تزيح الأخرى وتأخذ مكانها، ربما لن يكون السلاح هو التجارة الراجحة مستقبلاً! لا بدَّ أن يكون هناك شيئاً بديلاً عنه، لأن الحرب إذا هدأت وخلدت الوحوش إلى النوم بعد أن شبت من دم الفريسة، جميع الأنظمة متفقة على إن الدواء لا يمكن أن نوفره لأن الجميع سيخسر لا محال، فقلت لمستر دايفيد

__ لماذا يتفقون على ألا يوفروا العلاج؟

__ ابتسم لسذاجتي وقال: من أين يعيشون إذن

__ بحياة البشرية يتاجرون؟

__ نعم، إن الحياة هكذا هي، النزاعُ هو الصفةُ الأكثرَ مطابقةً للحياة وما السلم إلا عرض طارئ!

دُهلْتُ مما أسمع، يا ترى كيف ستكون هذه الحرب في هذا العصر، إنها أشرس من أيِّ حربٍ سابقةٍ إنها حرب لا تكلف كثيراً، سيلجئون إلى المواد التي تقتل أكثر وتكلف أقل، لتكن هي حرب الأوبئة إذن.

يعزُّ علي أن أفارق أهلي، لكن القلوب تموت إن عودتها على الهجر والبعد، التواصلُ يزيدُ من قوة الترابط الروحي وإن كان برسالةٍ عابرةٍ على برنامج الواتساب أو تعليقاً على برنامج الفيس بوك، المهم أن تترك أثراً يدلُّ عليك، لم يعد لي وقتٌ أتواصلُ به مع أهلي، العلاقات بدأت تتسع، والأعمال بدأت تتوسع أكثر، تحولتُ من موظفٍ بسيطٍ إلى منزلةٍ نائب رئيس الفرع لأني كنت لا أهدأ ولا أركن إلى السكون عندما اتخذت من شخصية مرتضى ووليد مثلاً أعلى، إنهما كانا ينامان بأقذر الأماكن ويأكلان أقذر الأطعمة بأحياءٍ شعبيةٍ رخيصة، ولكنهما صبرا وكافحا وخلقاً لنفسيهما ما جعلني أضع سيرتهما موضع المثل لأحتدي به، زوجتي حاملٌ وفي الشهر التاسع من حملها، قريباً ستضع لي ولداً، لا بدُّ أن أكون قريباً منهم في هذه الظروف، رجعتُ إلى النجف وبقيت بقربها أتابع حالتها أولاً بأول، عيّرتني أم زوجتي

عن قصوري وبعدي عن عائلي فأخبرتني بأني لمن أعمل؟ ولمن أنا بعيد كل هذا البعد؟ اليس لهم، أليس كل ما أقوم به لأجلهم، أقسم لك إني لم أجن شيئاً لي، كل هذا هو لمستقبل أولادي وأمهم.

تذكرتُ أنّ جدي كانَ يحاطب أطفاله بذات الكلمة، لعمرَي لمن نعمل إذن، نحن نكدُ ونجهد ونعاني ما نعاني ولا ننتفع منه! إنها سنة الحياة ولن تجد لسنة الحياة تبديلاً، المهم أن يكون المال موجوداً، إن وجود المال في جيبك يعني أنك لفي غنى عن الكثير من الذل والعوارض، قيمة المرء ما يملكه وليس ما يحسنه، هذا القول هو ما ينطبق على الحياة اليوم وليس بما يحسنه المرء، الاحسان والأخلاق قد نعجب بهما ونلجأ إلى التخلق بهما ولكننا نميل إلى المال أكثر ونحترم صاحبه أكثر وتزداد مكانته فينا أكثر، المأل يعطي للفرد كثيراً من الفضائل والحسنات وقد يضيف ألقاب الخير والفضل عليك، إن للمال لسحراً وجاذبيةً .

(٨)

على حين فجأة، وعلى غير عادةٍ، دونَ اكتراثٍ منا، نُهزل، لا نعبأ بما نسمع، كأننا نعرف، وفي الحقيقة لا نعرف شيئاً، الأنباء تنشر على بعض الصفحات الفيسبوكية، الصين الذين يأكلون الحشرات والديدان، الصين التي يصل عدد سكانها ما يفوق المليار نسمة، الصين التي بدأت تدخل إلى مصافِ الدول العظمى، لتكون إحدى هذه الدول الخمس، الاخبار تقول أن هناك بدأت الحرب البيولوجية، الحرب الشرسة، الكائن الذي لديه القدرة على أن يدمر أكثر، صممناه ليُدمر أكثر، خُلق ليحصد الكثير وبتكلفةٍ أقل، إنه الوباء...

الوباء كلمةٌ نعرفها، لكن لم نكن نشعر بأن الوباء منه الخطير ومنه الأخطر ومنه القاتل ومنها الأكثر تدميراً ومنها ما لا نستطيع أن نوفّر له علاجاً، إنه كورونا..

ماذا تعني الكلمة؟ ممّ اشتقت؟ ومتى نشأت؟ وكيف نشأت؟ ومن الذي نشأها وأطلقها؟

كورونا الذي سمعنا به لأوّل اسبوع والذي لم يُحدث فينا هلعاً أو قلقاً، نمارس الحياةً بصورةٍ طبيعية على الرغم من قساوة الحياة وظلم النظم الاقتصادية التي فرضت علينا وجعلتنا نعاني من تبعاتها الويلات والآهات.

كانت الشركة تدرُّ عليَّ الخير كل الخير، كنتُ أرسل خمسمئة دولار إلى زوجتي وأهلي، مرتضى كان قد تعلقَ بهيفاء وصارَ يميلُ إلى غرامها، ولكن هل لمرتضى وقتٌ لكي يعيش الحب وأمور الغرام، العملُ الحرُّ يدرُّ أكثر من العمل في وظيفة حكومية، ألتقيتُ بمستر دايفيد في بيروت في اجتماعٍ لمجموعةٍ من مديري شركاته، خرجنا من الاجتماع أخبرني أن العمل الحر يعطي ما لا يعطيه العمل الوظيفي حتى وإن كنت رئيساً للحكومة، بل لا بدَّ لك أن تسعى لعملٍ تستثمر به سلطتك، كنتُ مستمعاً جيداً، أثناء عودتنا إلى الشركة اجتمع بنا مستر دايفيد وأخبرنا أن الحياة مقبلةٌ على أمورٍ معقدةٍ ولا أظنُّ أن الحلَّ سيتوفر على طاولة النقاش، أخبرناه بأن الفايروس مجرد لعبة وضعتها دولة تكره الصين وتريد أن تُقرم من حجمها وتوقف تمددها وسعيها الحثيث للهيمنة والسيطرة على زعامة العالم لإعتباراتٍ عدة هي تراها، لم يقتنع بالجواب بل قال: إن الموضوع أكبر من هذه الدول العظمى!

هذه الكلمة جعلتنا نضرب أخماساً بأسداس، ولا نكاد نصدق كلمة تخرج من المستر بهذه الخطورة! الخطورة القادمة هي على صعيد دولي كبير، ستخسر دول كبرى وستنهض من بين الركام دول أخرى، صيرورة التاريخ أن تموت دول وتلاشى لتنهض دول أخرى، أرى التاريخ أن تحتفظ دولةٌ بقوتها إلى المدى البعيد، كنت أظن أن مستر دايفيد أحد المسؤولين بهذا الوباء أو إنه يعرفُ المسبب الأكبر إلا إنه أحجم ولم ينبس ببنت شفة في هذا

الموضوع، أردت أن أكون حريصاً على العمل أكثر أمامه فصرتُ أناقش وأطرح الأفكار سواء كانت صحيحة أم خاطئة، المهم أن أتكلّم وهذا ما أريده ففي الكلام إثارة للآخرين ليعرفوا أهمية رجلٍ مثلي.

بدأت الحالات تزداد والخطورة تتعاضم، الإعلام مشغول، الأطباء لفي غنى عن الخوض فيما لا يتوقعون حصوله، إنه عصرُ العلم والمعرفة ونحن مستعدون لأيّ وباءٍ يخرج علينا سواء بفعلٍ فاعلٍ أم مفعول بنا، الشركة بدأت تعيد النظر في طبيعة العمل وأخذت تسعى لتقليص الرواتب وبعض الموظفين، القلقُ كان بادٍ على الجميع ألا يأتيه الدور وينتهي عقده في الشركة، العمل فرصٌ رابحةٌ ولا يمكن أن يفرطَ به أحد، مستر دايفيد صارَ يحضر للشركة بصورةٍ يوميةٍ و يقضي الساعات الطويلة في الشركة ويخوض اجتماعات كبيرة مع شتى الأقسام، كانت شعبة الصيدلة والمختبرات هي التي هيمنت على جل الوقت، كان مستر دايفيد يستحث الأطباء ان يعرفوا السبب لهذا الوباء الجديد، أخبرهم بأنه سيوفر لهم رحلةً سفرٍ إلى الصين وستكفل الشركة بكل المصاريف، عليهم أن يأتوا بالفتح العظيم، هكذا طلب وألح في الطلب، أريد منكم أن تعرفوا ماذا يكون الفايروس هذا وممّ يتكون وأن تجمعوا كل شيء عنه وتأخذون العينات من المصابين وتعرفوا ما حقيقته؟

هكذا طلب منهم وزاد من حماسهم واندفاعهم، فقد أطلق على الاكتشاف والمعرفة بالفتح، إنه يعرف أنه ليس سهلاً، كان الوحيد ممن التقيتُ به ممن يعرف خطورة هذا الوباء.

الأقدارُ مكتوبةٌ على جبين الإنسان، يمشي الإنسان بقدرٍ، ويعيش بقدرٍ، ويموتُ بقدرٍ، ويرزق بقدرٍ، الأقدارُ حُطت على بني آدم مخطَّ القلادة على جبين الفتاة، يتخيلُ الإنسان أنه خلقَ عبثاً وفي الحقيقة أن وراء خلقه حكيماً عظيماً، السبيلُ لحياةٍ آمنةٍ لا يكونُ إلا بالعودةِ إلى السلمِ والتعايشِ الودودِ وأن تكونَ صفةُ النفعِ هي الصفةُ الغالبةُ في التعاملِ بين البشرِ، أما إن ذهبتِ الإنسانيةُ مذاهبٍ شتى فإنها ستخلقُ أجيالاً تتصرفُ كالضواري، خسرتُ وظيفتي ولحسنِ حظِ خديجةِ أنها لم تقبلِ بتركِ وظيفتها وفضلتُ أن تنفصلَ عني دون أن تتركَ وظيفتها الحكومية! القلقُ بادٍ على الجميع، إنهم يفكرون دوماً في رغيْفِ الخبزِ ويهتمون به لأنهم أشد ما يخشونه هو فقدانه، قد لا يهتمون لصحتهم ولا لأي شيءٍ آخر بقدرِ اهتمامهم بتوفيرِ الطعام، أشدُّ ما يخشاه الإنسان هو أن يموتَ من الجوعِ، الجوعُ كافرٌ كما يعبرون، دخلتِ الأزمةُ ولاحت تباشيرها في البلدِ المجاورِ إيران، أخذنا نفساً لأنها عملية مقصودة لضربِ الدولِ بعضها ببعض، طبيعيٌّ جداً أن ينتقلِ الوباءُ بهذه السرعةِ من الصينِ إلى إيرانِ بحكمِ أن النظامينِ لهما أعداءٌ في أنظمةٍ أخرى أشد شراسةً وأقدر طباعاً، الشجاع لا يخشى من بطشه فخلاله

ستكون قيمة جمالية ومكرمة اخلاقية تضاف إلى سجله، أما الجبان فإنَّ خلال الشر والغدر ستكون سجية في تعامله، مستر دايفيد أطلق الكثير من الموظفين وأخبرهم أن لا ضرورة لوجودهم هنا، كنتُ من أولئك الذين طُردوا، لم أجد مأوى لي إلا مرتضى عسى أن يخلّصني من محنتي، رجعتُ من بيروت وفي رصيدي مبلغ عشرة الالاف دولار ولعلّ هذا المبلغ لا يكفي لفتح مشروعٍ من الصفر، قد لا أستطيع أن استثمره إلا أن أشتري سيارة وأعملُ بها سائقَ تكسي، كنتُ أسمع وأرددُ كلمة كان يرددها عليّ وليد وهي: استعن بقضاءِ حوائجك بعاهرةٍ ولديها مسؤول، فلجأتُ إلى مرتضى بواسطة زوجته هيفاء، هيفاءُ تكنُ لي كثيراً من الاحترام وتعرفُ أي صاحب الفضلُ عليها، لأني كنتُ الوسيلة لقربها من مرتضى، الشركةُ في بغداد ما زالت ضاربةً بعمق الوزارة وأصبح لدى الشركة أفرعاً في بابل وكربلاء، طلبتُ مقابلتها، قصصتُ عليها أي أريد مساعدتها في أن أكون معهم في هذا المشروع، في كلمةٍ عارضة دون أن أقصد بها شيئاً، ذكرتها بأيام جمع العينات وكيف كان طعم أحمر شفثيها عسلاً سائلاً، غضبت وأخذت تهددني إن ذكرت الموضوع ثانياً سأنال جزاءً لقاء تجاوزي الحدود، المهم أي سأقربكُ إلى مرتضى فلدينا عقداً جديداً مع الوزارة، فرحتُ كثيراً لأني قد حصلتُ على فرصةٍ أخرى في الشركة، مرتضى أصبح يملكُ الأهلية في أن يقيمَ التعاقد وإبرام الوثائق مع الشركات دون أن يرجع إلى مستر دايفيد.

الصراحة راحة كما يعبرون ولكنها قد تؤذي في بعض الأحيان، لا بد أن تعمل بمبدأ إن كانت لك عند الكلب حاجة فقل له يا حاج كلب أو من قبيل ذلك، المهم أن تنال ما تطمح به وتسعى جاهداً إليه، أريد العمل فأنا قد خسرت الكثير، خسرت زوجتي، وظيفتي، الكثير مما أنفقتة على زوجتي، أوجد لي مرتضى أن أكون مندوباً للشركة في توزيع المواد الطبية والمخبرية، لقاء راتبٍ مقداره خمسمئة دولار شهرياً، وفي المساء أعمل مندوباً موزعاً للصيدليات، أن تكون مندوباً ناجحاً فإنك تحتاج إلى لسانٍ يقطر الكلمات الجميلة، وتحتاج أن تقيم علاقاتٍ مع الأطباء، صرتُ أدخل على الأطباء فأطربهم بمدح القول وأحسن الألفاظ، كثيرٌ من الأطباء يملكون صيدليةً لهم، الصيدلية أصبحت كبائع السلع، لا تحتاج إلا إلى مهارةٍ في حفظ أسماء الأدوية ليس إلا، حتى إن كثيراً من المخبرين والمرضين بل حتى بعض طلبة كليات التربية والآداب أصبح يعمل في الصيدلية، لأنها تدرُ الربح الوفير ولا تحتاج إلى مجهودٍ كبير، بعض الأطباء وجدتُ العسر في تعاملهم لأنهم أصبح لديهم مندوبون خاصين بهم، الأدوية التي نرسلها غالية الكلفة والمواطن لا يعرف عنها شيئاً لذا فإن مكاسبها رابحةٌ أكيد، العلاج لا بد ألا يدخل المستشفيات وهي عملية اتفقت عليها الشركة المصنعة، فمن شروط اتفاق شركتنا ألا نبيعها العلاجات التي تتجاوز العشرين دولار، بل هذه العلاجات تتوفر في الصيدليات الخارجية!

الأزمة تضرب العالم كله، هكذا يقرّر ويصمّم الذين يتحكّمون بمصير البشرية، لولا عناية الله ولطفه بالعالم لتمكن هؤلاء من القضاء على الحياة في هذه الكرة الأرضية، لا يروق لهم أن يتركوا الانسانية تقرر مصيرها بنفسها وتحقق ما تصبو إليه بجدها واجتهادها، كأنّ الوباء يريد أن يعيد التوازن في كلّ مفاصل الحياة، أنظمة انهارت وأنظمة تلاشت تماماً أو ستلاشى، وأنظمة ستتصدر الزعامة وتضع نفسها رباً على الناس، صيرورة الحياة للأقوياء أما الفقراء لهم الله حسبما يقولون ! الحياة هي صراعٌ دائمٌ، ربما للربِ حكمةٌ هو أعلمُ بها بتسيّد الصراع والنزاع على طبيعة الحياة البشرية!

بالنزاع والخصام ينمّو العالم ويتطور، هكذا يردّد الكثير من العلماء المهتمين بالإنسان! قد لا يروق لنا القول إلا أنّ له مدلولٌ واضحٌ بيّن، يدخلُ سيفٌ إلى البيتِ محبطاً وقد أسلمَ نفسه للوساوس والقلق أن يتمكن منه، انفصلَ عن زوجته لأنه فشلَ في تعامله مع زوجته، على المرأة أن تنصبَ نفسها خادمةً لزوجها متى أراد ومتى اشتهى ولا ينبغي لها أن تطلبَ مثلما يطلب هو! القرارُ صعبٌ ولكنه حصلَ وتم ومضى كلٌّ منهما إلى حالٍ سبيله، خديجة قررت أن تقدّم على شهادة الماجستير وقد قُبلت وحصلت على اجازةٍ دراسيةٍ لتتفرّغَ إلى مستقبلها.

سيف ضائع، غريب، خائز القوى، لا يعرف أي وجهة يتجه، الأحداث تأخذ منه الكثير، يريد أن يعيد لنفسه ثقته وقوتها وحيويتها لكن هل يستطيع ومن أين يبدأ بذلك يا ترى؟

الجميع لديه شهوة ما، تارة تكون جنسية، سياسية، مالية أو شهوة للزعامة، تتفاوت الأقدار وتتضارب المصالح ولكل ردة فعل، الأمل يولد من رحم المعاناة، المعاناة تخلق في النفوس كثيراً من الطاقات وتحفز الكثير من المثيرات في المرء، لا بد للألم حتى يشعر بالأمل، ولا بد من الظلم حتى يعرف العدل، هكذا هي الأشياء تعرف بضعدها، هيفاء تريد أن تسترجع بعض الجميل والثناء الذي تركه سيف لذا تعزم على أن توفر له الحظ الذي يعيد له نصابه وحيويته من جديد.

ذهبنا أنا وهيفاء إلى مقر مكتب الوزير، دخلنا بكل كبرياء، أرادت هيفاء أن تشعرني بأن لديها معارف كبار ولهم ثقل في الحياة، المهم عندي أن أحصل على ما فقدته، أريد درجتي الوظيفية وأريد أن أمارس عملاً آخر، خسرت نفسي كثيراً فلا بد أن أعيد لنفسي ما فقدته، النساء يملكن أسهل الوسائل في قضاء كثير من الأمور، رأيتها قد تقربت منه وقد ملأت أنفه برائحة عطرها الذي اخترق حواسه وأيقظ الساكن من غريزته، أخذت تتغنج بكل دلع وهو مذهول مما يرى، لم يشعر بوجودي حتى، تركتها تكمل كلامها وهي

تطره بكلمات المدح والثناء، بأقل من عشرة دقائق، خرجت ويدي كتاب، إلى المستشفى بضرورة الإسراع في اكمال مباشرتي في الوظيفة، الدهول أخذني كل مأخذ ولكنها قالت: الآن عليك أن لا تعيد الخطأ مرةً أخرى، في هذه البلدان نحن بحاجةٍ إلى الوظيفة الحكومية لأنها تضمن لك ألا تموت جوعاً.

الحب والحياة توأمان، كنتُ أظنُّ أني مولعٌ بخديجة فاكشفْتُ أن الحب شيءٌ لا يعنى السعادة في الحياة الزوجية، كنتُ أود لو بقينا عاشقين طوال الحياة حتى لا ينتهي الحب بطلاقٍ وخصامٍ، أنا ضائعٌ في تيارات الحياة، أريد ولكني أجهلُ ما أريد! صرْتُ غارقاً بمشاكلٍ نفسيةٍ حادة، الحصول على الوجهة والسلطة كان هاجسي الأكثر إلحاحاً، سأكونُ عما قريبٌ مسؤولاً ولكني أريد أن أعني الدرس حتى لا أخسر كما السابق، ضياعُ المرء هو عندما يوكل أمور حياته ومستقبله إلى عاطفةٍ سخيقة لها بريق لكنه بريق خادع لن يستمر إلا قليلاً، تمرُّ العاصفة لتحرك الراكد الساكن من ذرات الغبار فلم لا تغير هذه الظروف نفسي التواقة لمستقبلٍ آتٍ كأنه حلمٌ أوشك أن يصبح حقيقة.

تقربتُ من المدير، وصرْتُ خلاً له، أصبحَ يعتمدُ عليَّ كثيراً، التوافدُ على الشركة لطلبِ العمل أصبحَ كثيراً، الفقراء في كلِّ الأوقات هم المتضررون من أية ظلمٍ أو تدهور اقتصاد، لكن أزمة كورونا أظهرت العكس تماماً.

خابت مساعي الكثيرين من الذين راهنوا أنهم لن يُغلبوا وسيكونونَ بمأمنٍ من العوارض التي تهدد الحياة، الفقراء سيعيشون وأما الأغنياء فإنهم لا بدَّ أن يتأثروا بهذه الأزمة التي بدأت تضرب الأفاق، انتشرَ الخبرُ كانتشار المهشيم، أخذت الناس تهرع لهول ما تسمع من أنباء هذا الوباء الذي ضرب البلدين الكبيرين الصين وإيران، كانَ الجميع يرمي الثقل على دولٍ لها خلافاتٌ حادةٌ واضحةٌ مع هذين البلدين، لكن لم يمضِ قليلٌ من الوقتِ حتى انتشر الوباء بهذه الدول بل فتكَّ بهم فتكاً عظيماً، أصبح الفرع كبيراً هناك، هذه الحضارة اخذت تأكل أبناءها، الهول العظيم والخطر ضرب الجميع، الاخبار تصل إلى العالم ان هذا الوباء لن يدع دولة إلاّ وعبث بها أيما عبث، التايتلات الاخبارية كلها عن الوباء تتحدث، الوباء لما يصل العراق بعد، لكن الخبراء يصرون على أنه لا بدَّ أن يفعل الفعلات في أرض العراق، هذا الوباء مقررٌ له أن يمرَّ على هذه الشعوب، ربما تكون عملية أو نظريةً إقتصادية لتقليص عدد السكان، كلما تطور الحياة وتقدمت التكنولوجيا كلما ازداد عدد السكان أكثر إنها مسألةٌ تحتاج إلى نظر، إن التكنولوجيا تريد تقليص عدد السكان فكيف وإذا السكان في ازديادٍ كبير جداً، العلاقةُ إذاً معقدةٌ ولها تبعاتٌ خطيرة على المدى القريب والبعيد.

حضرتُ ندوةً علميةً أقامتها المستشفى بعنوان كثافةٌ سكانية أم ثروةٌ بشرية؟ حاضرٌ فيها دكتور من أساتذة الجامعة، أخبرنا بأن الحياة مقبلةٌ على تغيير

نوعي كبير سيطراً عليها، هذه الكثافة السكانية تحتاج إما إلى حروبٍ طاحنةٍ كبيرةٍ وشرسةٍ وبأسلحةٍ أكثر تطوراً وإما بأن السماء تتدخل لفرض معادلةٍ جديدةٍ وهذه المرة نحتاجُ إلى وباءٍ أشدُّ فتكاً وسريعَ الانتشار ليعيد التوازن السكاني، الأرضُ لم تعد تتحمل ثقل هذه الكثافة، والحياة ليست فيها سبل معيشة لكل هؤلاء البشر، الحروب إذن معادلةٌ مهمةٌ ولا بدَّ منها لأنها هي التي تعيد الاستقرار والتوازن في البشرية.

الوباءُ نعمةٌ، سمعتُ منه هذه الكلمة فبقيت مذهولاً مما أسمع، الذي أسعدني أن الحضورَ لم يقتنع بأيِّ مما قاله هذا الدكتور، أطلق المحاضرة ومضى إلى سبيله، أدركته وصرْتُ أتوسلُّه بكوب شاي نشربه، فرحَ بأنَّ أحداً اهتمَ به، طلبتُ منه أن يعطيني أوراق المحاضرة فرحبَ بالفكرة، أخبرني: إن الوباءَ سواءً حصلَ بفعلٍ فاعلٍ أم بفعلٍ يدٍ غيبيةٍ، المهم هو واقعٌ لا محال، هو نافعٌ ومفيد، كلما تقدمت الحياة وتطورت أكثر كلما قلت وتلاشت فرص العمل والذي بدوره سيؤثر على المعيشة، إن تحديد النسل ضروريٌّ ولا غنى عنه، وأيضاً لا بدَّ أن نتحكمَ بالتكنولوجيا ونأخذ منها ما لا يؤثر سلباً.

أقبلت شركة التكنولوجيا الحديثة إلى إحدى القرى في محافظة ميسان، كانوا ثلاثين مزارعاً يعملون في هذه الأرض، الأرض تدرُّ الكثير من الخيرات، أقبلت الشركة بمركبةٍ مجهزةٍ بجهازٍ ذكي وحساس، وظيفَةُ الجهاز أن يصدرَ

الايعاز إلى المركبة لتقوم بحسب ما يوجهها الذي يتحكم بالجهاز، فهي تحرث، وتقلب التربة، تنثر البذور، تسقي الأرض، تقوم بكل الأشياء بحسب ما يوجهها الشخص، تحتاج إلى شخصين اثنين فقط، مما جعل الثمانية والعشرين الآخرين يُطردونَ من العمل، اكتفى صاحب الأرض باثنين منهم فقط، وفرت له هذه المركبة أجور ثمانية وعشرين عاملاً، وقللت من التعب، لكن كيف السبيل لهؤلاء الباقين؟ مصيرهم مجهولٌ بالتأكيد، إذاً علامَ سمحت الدولة بجهازٍ مثل هذا! هي آلة حداثوية وتقلل الجهد وبفنية ومهارة أفضل، لكنها قتلت ثمانٍ وعشرين عائلة، وجعلتهم يموتون جوعاً.

أن تسلّم نفسك للتكنولوجيا فأنت ستقتلُ نصفك أو ثلاثة أرباعك، ليعيش ربعُ منك بخير .

العملُ هو الوسيلة التي تجعل العالم ينشغلُ عما يكابده من ظروفٍ قاهرةٍ مفروضة عليه بقسوةٍ متناهية، لنلجأ إلى الحرب لتشغل الفكر عن المآسي وربما تكون مآسي الحرب أرحم!

إنتشار الوباء أصبح لا بدّ منه، الدولُ تنتهياً كل واحدة لتستقبل حظها ونصيبها من الفتك، بعض الدول لا بدّ أن تنهار وهذا حتماً لا ريبَ فيه، وبعض الدول ستنتفع به كثيراً ويحققُ لها اقتصاداً نفعياً كبيراً، وبعضها سيعاني من أزمةٍ خانقة تكاد تزهق النفس، كورونا أسمه يدعو للسخرية به، تارة

يقولون كورونا للتخفيف، وتارة كارونه وأخرى كروينا، المهم أن الاسم مشؤومٌ ويدعو للشؤم، العراقُ من البلدان التي كانت تسخر وتهزأً بهكذا نوع من الوباء، يسخرون بأنهم لم يخشوا الإرهاب والدول العظمى أَيْخَشُونَ شيء اسمه فايروس!

الأيامُ بدأت تُكثُرُ عن نابها الصعب، الناسُ نيامٌ أو كالنيام فإذا مَرَضُوا أو أصيبوا بنكبةٍ انتبهوا له وأحسوا خطر ما هم عليه، الحياةُ لا تطاق أَيْنَ المفرُ وأَيْنَ نفرٌ والعالمُ أصبح كتلةً من الوباء حيثما وضعت رجلك فيه أُصِبتْ بكارثةٍ كبرى.

الاقتصادُ هو الشغل الشاغل، الذي يستحوذ من فكر السياسة أغلب وقتها إن لم يكن وقتها كله، النظامُ الاقتصادي الجيد يُخلق أنظمةً جيدة للحياة على كافة الأصعدة، كان الوقت لما يمرُّ وسيف يسعى ليتسلق سلم السياسة والمال والجاه، يريد أن يصلَ إلى مبتغاه بسرعة الضوء إن لم يكن أسرع! لا يعرف التوازن في الأشياء، المهم الغاية الكبرى، اتخذ علاقاتٍ متنوعةً آملاً بأنه سيختصرُ الطريقَ وبالفعل إختصرَ الطريق لكن بصورة معاكسةٍ لما أرادَه وسعى إليه.

ليكن ما يكن، وليحصل الذي يحصل، المهم عندي أن أحققَ لنفسي الربح بعد سلسلة الخسارات المتوالية، أيام بيروت كانت هي الأبهى بالنسبة لي

ولكنها لم تدم إلا كمّر السحابة، اتصلت بوليد لأتفقد أحواله وما آلت إليه أموره وأوضاع الشركة، كنت أشك بأن لمستر دايفيد يداً بهذا الوباء عن طريق شركاته الكبرى التي نشرها في أرجاء المعمورة، لكن مرتضى يخبرني أن مستر دايفيد لم يكن إلا موظفاً بسيطاً تحت يد الشركة الأم، التابعة لجهةٍ دوليةٍ لا نعرفها بالتحديد، المهم علينا أن نعيد أنفسنا للعمل تحت يده، مرتضى يصّر على أن وضع الشركة لن يستمر كسابق عهدها، ربما ستتلاشى وتضمحل قريباً لأن الشركات المنافسة تسلقت وأخذت تنافس الشركات التي ينتمي لها المستر، يا ترى من لديه القدرة لينشر الوباء بهذا الحجم وبهذا الدمار؟ منظمة الصحة العالمية ستعتمد بروتوكولات تتفق عليها لعلاج هذا الوباء لكن المنظمة تجهل العقار الذي يعمل مع هذا الوباء وربما للمنظمة رأي لا يُعلم!

الوباء دخل العراق بصورة مفردة، أرعبت قليلاً من الناس ولم يكثرث للأمر الأغلبية، هنا ظهرت مجموعة من المسؤولين السياسيين يتصدرون المشهد على أنهم أعضاء اللجنة لمكافحة الوباء، هذه اللجنة متهمّة بالفساد والنهب لكن الجمهور قبل بها على مضض لأنه أصبح يكافح من أجل الأيّموت، غُطلت الأسواق بحجة الوباء، أغلقت الدوائر الحكومية والاهلية، تلاشت كل التجمعات، قُلصَ الدوام في المستشفيات ليصبح خمسة وعشرين في المئة، يبدو أن لكل محنة أناس يعملون للخير وآخرين ينتفعون منها، أزمة كورونا تُنبئ بأن تغييراً سيكون لا محال في دخل الرؤوس الكبيرة، صرّت مقرباً من

مرتضى أكثر بحكم علاقتي وصدائتي، أنا أسعى ومرتضى يسعى ولا بدّ أن تتغير الأماكن، هذه هي الدنيا لن تدوم على حالٍ ولن تستقرّ على رأيٍ، هيفاء لها أفكار تقترب مني، لتأخذ منها خليلاً إذن، أصبحت أزورهم يوماً في فرع الشركة التي قلّصت من موظفيها إلى الربع، مستر دايفيد لن يترك مرتضى ومرتضى لن يترك هيفاء وأنا لن أترك هيفاء ووليد لن يتركني، سلسلة مرتبطة مع بعضها البعض، الجسر الذي يربطني ويقربني إلى المستر هو هيفاء، صرّت أكلّمها وأطلبُ منها أن نعملَ معاً، أصبح لديها علاقات واسعة وعلى مستوى رفيع بحكم عملها في الشركة، فُرضَ أو حُصِصَ لموظفي المستشفيات الذي لهم تماس مع الوباء زيّ خاصّ، هذا الزي لا بدّ أن نكلم الدولة ونجري تعاقداً معها في تجهيزهم به، عرضت الفكرة على هيفاء، رحبت بها ومن فورها أخذت موعداً من المستر، المستر كان أذكى بل إنّه قد هيا لنا الزيّ الكامل وسبقنا بأنّه قد تعاقد مع الدولة، البدلة كاملة تكلفُ المستر دولارين، ففرض على الدولة أن يُجهزهم مقابل عشرة دولارات لكل بدلة، وتم الاتفاق بعجالةٍ وأبرمَ العقد ومضى القلم.

العالم موبوء، هكذا أرادته قوى الشرّ التي تتحكم بمصيره، العالم في حالة إزدیاد مضطرب وغير مدرّوس، لا بدّ أن تكون هنالك نسبة مناسبةٌ وروح التطور الحاصل، لا بدّ أن نقلصَ من عدد سكان الأرض حتى تتمكن الحضارة من العيش كما تريد، التقنيات الجديدة والتي ستأتي قريباً ستقلل من الكثير من اليد العاملة، التكنولوجيا تريد الاقتصاد في كلّ شيء وبالأخص البشر! كورونا ستعيد للاقتصاد بعض استقراره، كانوا يرددون دوماً وأسمعهم يتهامسون كثيراً في اجتماعاتهم أن الوباء سيغير الكثير من الحياة لا محال، الحياة بعد كورونا لن تعود كسابق عهدها، هذا ما حُطّ في لوح الذين اتفقوا على ألا يجعلوا البشرية تستقر من شرهم، حياة مليئةٌ بالشرّ لم نتكالب عليها، نحنُ الفقراء مسحوقون في أغلب الظروف والاقوات فعلامٌ نُحبط وعلامٌ نستسلم للخيبة واليأس، الظروف قد تخلقُ فرصاً جميلة ولكنها تميلُ إلى ظروف الشر أكثر، الأغنياء سيعيشون ولا قلقٌ عليهم، المصيبة والخطر للفقراء أكثر بل للفقراء نصيبٌ كبير في كل سوءٍ يضرب الحياة، كثرت الشائعات أن الحجر الصحي هو الوسيلة الأفضل لتجنت خطر الوباء، الفايروس لا يعيش في درجة الحرارة ٢٦ سيليزية، والعراق اليوم هو نفس الدرجة إذن لا خطرٌ على العراق ولا قلقٌ على النجف، أيعقل أن يدنو الوباء للنجف التي يرقدُ فيها المولى المقدس علي بن أبي طالب، هكذا ردد

الكثير من الناس وسمعتهم يرددون لا كانت ولن تكون هكذا أوبئة والعراق
عراق المقدسين والمقدسات، كنتُ أرددُ معهم في كلِّ ما يرددون، بل صرْتُ
أفكر وأتكلّم مثلما يتكلّمون، الأيامُ حُبلى بأنباءٍ لا يعلمها إلاّ علام الغيوب
ولن يعلم علمه أحدٌ إلاّ إياه، سبحانك يا رب العزة ألطف بعبادك الذين لا
مأوى ولا سندَ لهم غيرك، أنت حبيبُ الفقراء والضعفاء وأنت القويُّ وأنت
الغنيُّ، نَجْنَا مما نحذر منه ونخاف ولا حيلةَ لنا إلاّ أن نتوسلَ إليك أن تكشفَ
هذا الوباء عنا يا الله يا الله يا الله.

الصفقةُ تبرمُ بخفاءٍ لا يعلم به أحد، الاتفاقياتُ تجري على قدمٍ وساق، بليّةٍ
حالكةٍ شديدة الضباب، من أيام الشهر الثاني من سنة ٢٠٢٠، أفاقت
مدينة النجف على نبأٍ أربع الجميع ودُهل منه الجميع ولم يهتم به إلاّ الذين
لا يصدقون بالأشياء حتى تحصل أمام أعينهم، الحالةُ تحملُ نتيجةً الموجب
بفايروس كورونا، كيف سينتشر وكيف سيدخل إلى المدينة؟ أن يمرَّ الوباء
على شريحةٍ واسعةٍ من البشر هكذا أريدُ للوباء، أن أبقى موظفاً هذا يعني أنني
لم أحقق ولم أجن شيئاً يستحق أن أطمئنَ له، كانت المستشفى التي أعملُ
بها عبارة عن مدينة كاملة تقدّم الكثير من الخدمات إلى سكان المدينة
وغيرهم، العملياتُ تجري بصورةٍ يوميةٍ سواءً الخاصة أو العامة، الفقراء يُرادُ لهم
أن يملؤوا من المستشفيات الحكومية حتى يهرعوا إلى المستشفيات الخاصة التي
تعودُ إلى تجار البشرية والسماسة، سلكتُ سلوكَ الموظف الذي يريد أن

يحقّق لنفسه غايةً، الشركةُ قررت أن تضع لنفسها برنامجاً كبيراً وهذا البرنامج سيشمل العلاجات أيضاً، إن الحرب لم تعد هي الوسيلة التي تعيد رسم الخرائط وتوازن في موازين القوى، بل لا بدّ أن يدخلَ عنصرٌ آخرٌ، وليكن هذا العنصر نشر الفايروس، الله لا يريد بالبشريةِ شراً، ولو أراد أن ينتقمَ منهم فإنّ هذا يتنافى مع رحمته وعاطفته نحو الأطفال الرضع والشباب الرقع والشيوخ الخشع، إن الرب لا يدخل في حسابات الانتقام ولن يرقى الاتهام إليه، الطبيعةُ تعطي للبشرية نفسها وتسخر نفسها للبشرية ولكن البشرية لسوءٍ في طبعها ولوم في نفسيتها أصبحت تعبت العبت الكبير وتترك الدمار ليشوه الطبيعة الخلابية، مرتضى يوعز إلى مجموعةٍ من الأطباء للقاءه في فندقٍ من أشهر فنادق المدينة، كانت وجبة العشاء دسمةً، جلسَ جمعٌ كبير من ذوي الاختصاص، أخبرهم بضرورة التعاون والعمل في إنشاء مركزٍ لدراسة كل ما يتعلق بالوباء هذا، رحب الجميع بالفكرة، وأخذَ يدلي كلٌّ منهم بدلوه، سمعَ من الجميع وأخذَ كلماتهم محمل الجد، خصص قاعةً كبيرة وبأحدث الأجهزة لمقرّ اللجنة التي ستتكلّف بدراسة كل ما يتعلق بفايروس كورونا، كنتُ حاضراً معهم، الجميعُ بدا كأنه يعرف كل شيء، وأن الفايروس لن يكونَ بهذا الخطر الكبير، لم يسألوا أنفسهم إن كان مصنوعاً أم غضبٌ رباني؟

صرتُ أحضر الجلسات والمناقشات التي تُقام في هذه القاعة بصفتي أحد أعضاء الشركة ومن المقربين إلى المسؤول المباشر فيها، أنفقوا على أنهم سيلتزمون بما أقرت عليه منظمة الصحة العالمية بحجة أنها الأمّ الكبيرة العاملة بكلِّ شيء! الأمّ قد تقسو ولكنها لن تقسو على أولادها، بماذا نبدأ بالحد من انتشار الوباء أم بإيجاد علاجٍ له؟ كان هذا السؤال إحدى الجلسات التي أُقيمت وخاضَ فيها الأطباء ما خاضوا ولم يصلوا إلى نتيجةٍ تُذكر، كالعادة يخرجون بعد أن يأخذوا نصيبهم وهو وجبة عشاء دسمة وورقة المئة دولار ثم يمضوا إلى أحوالهم، مرتضى يريد أن يعرف السرّ الذي يقف خلف الوباء، وأنا كنت الأكثر إلحاحاً لمعرفة المتسبب الأبرز الذي جنى على البشرية كل هذه الجناية، لا أحد يعرف ولا أحد يريد أن يعرف من المسبب!

كلما إزدادت معرفة الإنسان كلّما إزدادت مسؤوليته، وكلما إزداد معرفة كلما أصبح أكثر شراً، إن الإنسان طموحٌ للوصول إلى المعرفة ويريد أن يعرف كل شيء، الطبيعة سخرت كل شيء له فلم يكتفي بهذا! بل يريد أن يُسخر أخيه الإنسان أيضاً، الاستبداد كان منذُ نشأة الإنسان الأولى وبقي وسيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، الناسُ لفي شُغلٍ عما يحصل في الغرف الخاصة.

الشعورُ هو الذي يتحكم بحالتك، إن كنتَ تشعرُ بالسعادة أو التعاسة أو الصحة أو المرض، أن تشعرَ بالظلمِ هو الذي يولّدُ الظلم، وأن تشعرَ بالخوفِ من الوباء ستجلب الوباء إلى نفسك وسيؤذيك لأنك تخشاه، الحالاتُ في تزايدٍ ملحوظ، الناس التزمت بمبدأ الحجر الصحي، واختفت الحركة من الشوارع إلا الضرورات، الفقراءُ التزموا بما أمرت به خلية الأزمة، الشوارعُ مغلقة، الناسُ بدأت تستشعر الألم والخطر الذي بدأ يقترب أكثر منهم، التخبط واضحٌ، اطلاق التصريحات غير المسؤولة، احتارَ الناسُ في الأمرِ، أكثر طبقة انتفعت من الوباء هم شريحة الموظفين، الراتبُ جارٍ من دونِ دوام، الفقراءُ عليكم أن تلتزموا، نسيت خلية الأزمة أن الفقراءَ حياتهم على العمل اليومي، إن اليومَ الواحدُ يؤثر على حياتهم فكيف لهم أن يلتزموا أكثر وأكثر، أن أموتَ من الجوعِ خيرٌ لي من أن أموتَ بفايروس كورونا، إن أطفالِي يريدون الخبزَ يومياً فكيف لي أن أراهم يأنّون ويطلبون الخبزَ وأنا جالسٌ لا حراك، سأسعى لأجلب لأطفالي الأكل ولو كلفني حياتي، هكذا سمعتها من كثيرٍ من الفقراءِ، يفضلون الموتَ بالوباء على الموتِ من الجوعِ، إشارةٌ إلى هول المصيبة التي ستحلُّ بهم، لكن اللجنة لا تسمع ولا تعرف وبل لا تريد أن تسمع ولا تريد أن تعرف!

اللقاءات كانت مكلفة على الشركة، لم يجد مرتضى أية تطور بما قدموه من دراساتٍ في الموضوع، قرّرَ أن يطردهم، وصلَ التقريرُ إلى المستر، لم يرق له

هذا الهراء، المستر كان لديه فضول كبير لمعرفة من المسبب، هو يلخ في كيفية صنع هذا الوباء لكن محاولاته باءت بالفشل دون تحقيق شيء ملموس، القضية إذن قضية دولية وعملية متفق عليها من قوى مجهولة، كان يشكُّ المستر بأن الشركة التي يتعامل معها هي التي صنعت ونشرت هذا الوباء، حاول إغراءهم بشئ السبل ليصنعوا له جرعات من العلاج بالمبلغ الذي يطلبونه، إن حياة البشرية مرهونة بيد أناس يتاجرون بها ويقررون من الذي يعيش ومن الذي لا بد أن يموت، صرث أقربُ أكثر من مرتضى، وألح أن الفايروس صنعته أيادٍ خبيثة واتهم الدول العظمى الخمس، المشكلة أن الوباء سيؤثر كثيراً عليهم، ربما العكس، إنهم خططوا وقرروا وأطلقوا ما أتفقوا عليه، العالم أصبح بيئة غير صالحة للحياة، الحروب والسلاح البيولوجي أهلك الطبيعة وأمريتها، لم تعد الطبيعة تستوعب كمية ما يُلقى فوقها من سم، التطور أن تتفن بصنع أسلحة تقتل أكبر كمية من البشر، لا بد أن تقف عجلة التطور أو الموازنة بينها وبين القديم، إن ركنا إلى التكنولوجيا بكل ما فيها فإننا سنقتل أنفسنا بأنفسنا، التقنية ليست خيراً كلها، ففي كثير من الأحيان تكون وبالاً على البشرية، التكنولوجيا تقر إنه في عام سيأتي قريباً ستختفي أكثر من ملياري فرصة عمل، يا الله ما هذا، لا أهلاً ولا مرحباً وهكذا تطور وهكذا تكنولوجيا، زادي الذعر، وأخذت أنظر إلى الناس البسطاء كيف لهم العيش بقادم السنوات؟ قال مرتضى: لا تقلق فإنهم لن

يتضرروا أكثر من ضررهم هذا، لأنهم لن يركنوا إلى التكنولوجيا وسيغلقون أبوابهم بوجهها إن هددت حياتهم وحياة أبنائهم، الاجتماعات مستمرة ولكن بلا جدوى إلا في الجد في البحث عن الحل الذي ينتفع منه الشخص وليس حُباً بالبشرية ليقدم لها العلاج!

العلاج موجود ولكن بثمانٍ! أن تخلق الأزمة لتأتي بالحل وتأخذ ثمنك خالصاً هو شيء متعارف عليه ولا جدال حوله، يدخل مستر دايفيد إلى شركته وقد بدت على وجهه أمارات البشاشة والسرور والسعادة، كأن المشكلة أزفت وبانت ملامحها، الشركة لن تخسر وسوف تعود إلى سابق عملها، الكيفية لا يعرفها أحد، المهم على الجميع أن يهيأ نفسه لمزاولة العمل من غدٍ، الحروب هذه المرة ستصب في صالحنا ولا مندوحة من استغلال الموقف بكل جدية، الوباء سيتحول إلى تجارة رابحة، ولكن لدينا سماسة كثيرون لا بد أن نملاً جيوبهم حتى يهيئوا لنا من أمرنا ما نحتاج إليه، الأمل يأتي بعد شدة غمة وضيق، يلوح من قرب كأنه يناغي النفوس المتعبة الضنكى، أدخل إلى المستشفى وبعيني أرى الفرع عند الكادر الطبي من أقل درجة إلى أعلى درجة، لكنني أتعجب أن الأطباء لا يخشون الوباء كثيراً، كأنهم على معرفة به أو هو معروف لديهم، الأزمة ستحل بأزمة، لم أفهم القصد إلا عندما شرح لي مرتضى هذا، قال: أن تحل أزمته عليك بخلق أزمة عند غيرك، هذا ما تعمل به أنظمة الحكم في كل بلدان العالم، إنّ الدول العظمى استطاعت أن

تجنبَ نفسها الأزمات وذلك بأنها أبعدت الشر عنها إلى بلدانٍ أخرى، كيف ستكون معنا إذن؟

لا بدّ أن تُشاع ثقافة الوباء، ولا بدّ أن تُشعر الناس بخطورة الوضع وأن الوباء سيفتك بالبشرية فتكاً ذريعاً، البسطاء سيصدقون، أما الأغنياء فلا بدّ أن نقلّ الفقراء أمامهم حتى يعرفوا حجم الخطورة، هكذا إذن!

عليك أن تكون غيباً في بعض الأحيان، وعليك أن تتغابى في كثيرٍ من الأوقات، أن تكون غيباً لكي تدرك ما يُحك حولك وما يفكر به غيرك لهي وسيلة ناجحة لمعرفة ما تُخبئه النفوس، موظفٌ بسيط لا أملك أيّ قرارٍ، وليس لدي أيّ معرفة كيف تُدار المؤسسة الصحية، فكيف يا ترى سأكون من ضمن هؤلاء لأكون ممن يُشار إليهم؟

كعادي دخلتُ إلى المستشفى ونفسي مترعةٌ مما أسمع ومما أرى، الشركة أم الوظيفة؟ الكادر مهتمٌ جداً، لم أرتدِ الكمامة إلا عندما تُفرض عليّ فرضاً، الكفوف أصبحت شحيحة وازدادَ سعر علبِ الكارتون من أربعة دولاراتٍ إلى خمسة عشرة دولاراً بل إلى عشرين دولاراً ووصل السعر إلى الثلاثين دولاراً! بل أصبحت تُباع بصورة المفرد! إن مرتضى يعرفُ أنها جزءٌ من المؤامرة التي وضعتها أيديّ تعملُ بالخفاء، عليك أن تكون أحرساً ولا تفكرُ بأيّ مما يُثير حولك شُبُهَةً، كلنا نريد أن ننتفع وكلنا يريد ان يعملَ فلا بدّ أن نقوي بعضنا

البعض، مبدأً معروفً للجميع، الصراحةُ سعادة، لكن مرتضى لم يصارحني بأنه ينتمي إلى المؤامرة التي حيكت أو تُحك، مؤامرةً دولية كبيرة، مغزاها الأكبر الاقتصاد بالمرتبة الأولى، الحروب العسكرية لم تعد تجدي نفعاً، إنها مكلفةٌ للغاية، والاقتصاد لا يستطيع أن يُكلف نفسه بحروبٍ تغيرت المعادلات وتغير الرهان، كثيراً من الأفعنة حُطط لها أن تُكشف ولكنها بقيت مخفية وكثيراً من الأصنام أُريد لها أن تسقط وتتكرر ولكنها صمدت وقويت صلابتها أكثر، إذن الرهانات على الحرب العسكرية لا بدّ أن يُترك، ويستحدث حربٌ جديدة تعيد للاقتصاد قوته وهيمنته وريادته، الصناعة قد لا تكون هي الاقتصاد الناجح، النزاع هو الوسيلة الأكثر منفعة لكل الأطراف، كأنّ الحرب سنةٌ طبيعيةٌ للحياة أو رديفٌ لا بدّ من وجوده، الحرب والحياة توأمان لن يفترقا حتى تتغير سنة الخالق بمصيرهما، أنهما يعيشان معاً و متلاصقان منذ قصة هابيل وقابيل أبنا آدم حتى يوم نُبعث المخلوقات إلى ربها.

القناعة تتغير، ولا وجودَ لحركة ثابتة، لكن هؤلاء الذين يقودون البلد ثابتون في رؤيتهم بإدارة هذا البلد وهي مصيبة سيدفع ثمنها الكثير من الذين يعيشون الفقر صباحاً ومساءً، أن تتمسك برأيك هو دليلٌ على بلادة عقلك وليس على قوة شخصيتك، كثيرون هم الذين يصرون على الخطأ ولا يتنازلون لأنّ نفوسهم لا تحمل المرونة والسلاسة، يتشبثون بالخطأ ولا يعدلون عنه ظناً

بأنهم سينكسرون إن اعترفوا بالذنب! ليس كل البشر على مستوى واحد واضح، بل إنهم يتفاوتون في كل شيء، وهذا من مساوئ أو محسان الحياة البشرية، الجهل والتجهيل متعمد، الناس لهم ظواهر الأمور ولا يعلمون بواطنها، الباطن يعرفه الذين في عقولهم سعة للتفكير، يدخل على حين فجأة غرفة الاجتماع، ينهض مستر دايفيد له مرحباً بجملة بالغة، يجلسه على كرسيه وبقي واقفاً منحنياً، يجلس الرجل بكبرياء واضح، يُطفأ سيجارته، يعرفهم مستر دايفيد بهذا الرجل: إنه الكبير رافائيل إنكلون صاحبة هذه الشركة وصاحب أعظم الشركات في لندن وباريس وواشنطن وسدني وهذه الشركة أيضاً، سادّ الوجوم على الجميع، رانّ الصمت على الجميع، لم ينبس أحد بينت شفة، إنَّ أمارات العز واضحة عليه، رحبّ الجميع بحياء كبير، وحفاوة بالغة واضحة، كان المجلس يضم الكثير من رجال الأعمال ورؤساء أفرع الشركة، أخبرهم بأنّ أزمة كورونا لا بدّ أن تُستثمر ما دام الناس لا يعرفون عنها شيء، لا بدّ أن نزيد الملح في نفوسهم ولا بدّ أن يستشعروا الخطر في كل حياتهم، إنّ الأزمة مؤقتة بل مؤقتة جداً، العمل سيكون على قدمٍ وساق لنستثمر كل دقيقة تمر، لا أريد أن تضيع لحظة دون أن نسجل فيها مبلغاً يضاف إلى رصيد الشركة لنطور اقتصادها ونخلق توازن بيننا وباقي الشركات حتى نحافظ بوجودنا بين القوى التي تهيمن على اقتصاد البشرية، الأزمة في ذروتها ونحن على وشك أن ندخل الذروة، سنتعامل مع الجهات

الحكومية ونقيم الكثير من العقود ، هذه العقود ستستمر حتى بعد الأزمة، يسأل أحد رؤساء القسم: وماذا لو اختفت كورونا بسرعةٍ لم نحسب لها موعداً؟ لدينا رجالاً في الدولة تُسهل لنا الكثير والكثير، الجرعات القادمة من الوباء ستكون أكثر حدة، سيضرب الضعفاء ليتعظ الأقوياء، وسيُضرب الفقراء لنجني من الأغنياء، السكون سيخلق لنا نشاطاً، سكون الناس سيجعلنا نتحرك.

هكذا كان السباق المحموم يجري، لم أتوقع أن يجري العالم بمثل هذه الصورة، كثيرٌ من الحكومات أصابتها الدهشة والذهول من فايروس كورونا وسعة إنتشاره السريع وهي حكوماتٌ فاشلة لم تتوقع النتيجة الطبيعية للعولمة ، وكثير من الحكومات كانت متوقعة الفايروس أو ما يشبهه، المهم أنها موطنة ومتوقعة أن أزمة حادة ستضرب الاقتصاد العالمي وتهدد الكثير من موازين القوى وتعيد رسم خارطة جديدة لقوى رأس المال، سأبقى بالقرب من مرتضى وأتخذهُ وسيلة لأصل إلى مستر دايفيد ومنه إلى الكبير رافائيل، إنَّ من جاور السعيد سَعد ومن جاور التعيس اغتم، لأجأ إلى القوي لأقوى وإلى الغني لأغني، ألححتُ في الطلب، وتوسلت إلى مرتضى بكلّ شيء أن يجد لي وسيلة يقربني من مستر دايفيد مادام أنه موجودٌ في العراق، بعد طول تخطيط وافقَ على قلقٍ، المهمُّ عندي أن أدخلَ إلى عتبة الباب وأكون في الداخل، ما زلت خارجاً أريد أن أُلجَ إلى صندوق هؤلاء عسى أن ألتقط

الفتات المتساقط منهم، إنّ إشتداد الأزمة شيء لا محال، علام قلق أنا إذن،
الخير كل الخير مع هؤلاء، المستشفى لن تخلق لي المستقبل الذي أرجوه،
هؤلاء مساكين وأن لا أريد أكون مثلهم!

أهل الشرّ أوفياءً بعضهم لبعض، لأنّ المصلحة تقويّ وتحفظ العلاقة ما
دامت باقية بينهم، وأما أهل الخير فإنهم كثيراً ما يختلفون وندر أن تجدهم
متفقين إلا على اختلافهم ! المصلحة تقتضي أن تدوب أيّ خلافات،
العمل الدؤوب لا بد أن يأخذ مجراه، نريد أن نعمل بجدٍ وإلا فالغيب هو من
يُضيع هذه الفرصة، كنتُ مذهولاً بصفتي موظفاً بشركة أهلية فكيف بي لو
أصبح رئيس قسم فيها؟ أنا أرى أنّ أزمة كورونا هي قضية اقتصادية بحتة،
لأنّ هؤلاء لا يهمهم كيفية مواجهة وطرد هذا الوباء بل كيفية استثماره
والانتفاع منه، سأدخلُ عاماً جديداً وما زلتُ أنا ذاك الفتى الضائع، خسرتُ
زوجتي التي أحببتها وأحبتني بصدقٍ، أنا خلقت لأضيع وليس لأستقر، لا
أملك قراراً لي، أنا أسير لهواي، مهما يكن فلا بد لي أن أعيد لهذه النفس
الضائعة بعضاً من السكينة والاستقرار، مرتضى عضو مهم في الشركة ولا
يمكن الاستغناء عنه، مركزه جوهرى وحساس، إنه يسعى للبناء والتطوير، لا
يكف عن العمل والتفكير به، إنّ خيبة أمله كانت كبيرة ولكن نجاحه كان
أكبر، الإنسان يحتفظ بحياته الأولى، وتبقى حياته الأولى وما عايشه وتفاعل
معه مستقراً في عقله الباطن حتى لو بلغ من العمر قرناً، إنه لا ينسى

ذكريات الطفولة أبداً على عكس ما يمرُّ به من حوادث قريبة، فهو ينسى ما حدث معه قبل شهر أو سنة ولكنه ما زال يحفظ الكثير من ذكريات طفولته، الحياةُ درسٌ كبير وأكبر معلم لمن ينتفع منه، إنها المدرسة الأفضل لأنها واقعية، هيفاء التي بقيت تبحث عن فرصةٍ عملٍ لها فلم تجد إلا أن تدخلَ من بابٍ ضيقٍ ونالت ما أرادت، هي أصبحت مهمة ومستشارة لمرضى فيما يتعلق بالكثير من أمور الشركة، الحلُّ لا يهم، الأهم هو كيف نستغلَّ الفرصة، هكذا كانت أغلب الاجتماعات التي يجريها الأعضاء، أخذوا يتعاقدونَ مع الوزارة لتوفير ما يحتاجه المصابون في هذا الوباء، بل صاروا يشجعون على الوقاية كثيراً، الكمامةُ أصبحت لها تجارةٌ رابحة، بل هي التجارة الناجحة، أعرفُ أنّ أصحاب المذاخر تركوا الأزمة ليومين لتشتد أكثر وبعدها يطلقونها بالسعر الذي يرغبون به، أصحاب الصيدليات أصبحوا رديفاً للدولة، الناسُ صارت تكره وتمقت الصيدلية كثيراً، إنّها تحولت إلى محلٍ كباقي محلات بيع المواد الغذائية أو محلات بيع الخضار! هذه كلها كنتُ أسمعها ولا أكاد أصدقها من هول وقعها، هؤلاء يريدون أن تعاني البشرية من ظلمهم إلى أبد الدهر، لا يكفون عن المتاجرة الحقيرة في أرواح الناس، المال أولاً، الأهم هو المال، كنتُ أتمنى أن أعرف أيُّ الأنظمة هي المسؤولة عن هذا الوباء وصنعه وانتشاره، أجدُ أنّ الجميع متهمٌ عندي، الجميع لا يأبه للإنسانية، الجميع يودُّ لو أكلَ البشر أحياءً، لذا وجدتُ أنّ النافع لي أن

أبتعد عنهم وعن تجارتهم التي لا أتحمّل أن أتعاملَ بها، لدي بقيةٌ من الخيرِ باقٍ في نفسي، أهلي غرسوا بي وما زلتُ أحتفظ بهذا الغرس الإنسانيّ النبيل، سأترك العملُ وأعتمدُ على ما يدره راتي الشهرية من خيرٍ وأجنبُ نفسي محاسبةِ الضمير ومحاكمته العادلة، إنّ محكمة الضمير هي أصدقُ وأعدلُ محكمةٍ، لكنها قاسيةٌ على الفردِ كثيراً، الفطرةُ السليمة هي التي حُلقنا بها لذا فمن حادٍ عن الفطرة يجدُ أن الضميرَ له بالمرصادِ.

دخلَ سيفٌ والقلقُ بادٍ على محياه، يريدُ أن يقدمَ استقالته ويمضي يشق طريقه وحيداً، الضوضاءُ والقوضى جعلته مستسلماً لهوى غيره، نفسه ضائعةٌ بين ما يريد وما يُراد منه، النفسُ عدوٌّ لدود لصاحبها، وندرَ من كبح جماحها وأوقف توقها إلى ما تشتهي وما تريد، كثيراً ما تكون شهوات النفس سيئة وتبدأ الصراع مع صاحبها والغلبة للأقوى في كلِّ حين بالتأكيد لها هي! المستشفى التي يعملُ بها كانت وسيلة لتخفيفِ الضغط عليه، إنه لن يموت جوعاً ولن يحتاج أحداً ليتصدقَ عليه، راتبه جيد ويكفي لسدِّ كثيرٍ من حاجاته، زوجته خديجة أصبحت طالبةً في الدراسات العليا، وأخذت اجازة دراسية، مما جعلته يُحرمَ من رؤيتها وإن عن بعد، النظرات تشعلُ فتيل الروح من الداخل، ولا حيلةً في بعض الأحيان، اللقاءُ معها جميلٌ لكني غيرَ راغبٍ في عودة الاقتران بها، هي طموحةٌ وأنا أكثر طموحاً منها، الفرق بيني وبينها

أنها نظرت فيما بين يديها فمشت خطوة من خطوات الألف بينما أنا لم أزل أحلم وليس لي غير الحلم، هكذا كان يردد بين نفسه!

كورونا قادمةٌ وبقوةٍ نحو الفقراء، لا عدالة حتى في توزيع الوباء ولا عدالة في تطبيق القانون ولا عدالة في كلِّ شيء!

هكذا شاعت الظاهرة، لكن كورونا قلب المفهوم الشائع، ونشرت عدالتها على الجميع سواءً بسواءٍ، لا المحسوبةُ والجاهُ لهما تقديرٌ عندها، فهي متمردةٌ عاصية ولا تخشى أحداً، بدأت الحكومة العراقية تفرضُ حظرَ التجوال وتُشدُّ في تطبيقه ظاهراً، إنّ الوباءَ أتى على طبقٍ من الذهبِ إلى الحكومة، بذريعةِ الوباءِ والخوف من انتشاره ذابت التظاهرات كما يذوب الملح في الماء، الفقراءُ عليكم أن تُدبروا حالكم وتعيشون، إنكم خبِرتُم المصائب والمآسي فهي ليست بجديدةٍ عليكم، الحصارُ في عامِ ١٩٩١ خيرٌ مثاليّ لكم، لا توجدُ خطةٌ لاحتواءِ هؤلاء ولا توجدُ طريقةٌ لمعونتهم في هذه المحنةِ الكبرى، الأغنياءُ لا عليكم، أنتم محفوظون بأموالكم فلا خوفٌ عليكم ولا هم يجزنون، المصيبةُ على رؤوس الفقراء ليس إلا، غُطلت الأسواق، وأغلقت المحال وحُربت الناس في أرزاقهم تطبيقاً لقرار اللجنة التي وُضعت لحلِّ الأزمة! صارَ الناسُ يخشونَ الجوع، كأنّ سنينَ عمرهم لا بدّ أن تبقى في خطرٍ، كنتُ أمضي إلى الدوام مع صديق لي في ذات المستشفى، كانت السيّراتُ تُرحب

بنا عندما نمرّ منها، شعورٌ جميل عندما نسمع كلمات المديح والإطراء تنهال علينا، الحقيقة نحن لم نقدم شيئاً إلا واجبنا بل أقل بكثير مما هو واجبٌ علينا، أصبحنا نذهب إلى الدوام أربعة أيامٍ في الاسبوع، أخذوا يجهزون بالزيّ الوقائي للتعاملٍ مع المرضى، سألت المسؤول الذي يجهزنا بهذه البدلات عن تكلفة هذه البدلة كاملة فأجاب خمسة عشر دولاراً تكلف الدولة! ذهلت فكيف وهي لا يتجاوز سعرها في السوق دولارين! كنتُ أقتصدُ حتى في الكفوفِ، كنتُ أستعمل زوجاً واحداً أعقمه وأعملُ به وكان زميليّ يستعملان أكثر من ثلاثة عشرة زوجاً من الكفوف الجيدة! الفسادُ منتشرٌ في كلّ مكانٍ، ومحتارٌ أنا بين الاصلاح من الأعلى أم من الأسفل؟ هؤلاء الموظفون لو كانت البدلات هم مكلفون بشرائها لوجدتهم يحتفظون بها ويأتون بها لعملهم، لكنّ غياب المسؤول وتهاونه معنا جعلنا نعبث كلّ هذا العبث، المرضى بدأوا يتكاثرون، الوباءُ صارَ أكثر سعةً، معلومٌ أنّ القادمَ أسوء هذا ما كانوا يحدرون منه على الدوام، أصبح الجميعُ عالماً عارفاً بهذا الوباء، في الحقيقة لا يعلم بالسحرِ إلا من حضره، صارت تُنشر في كلّ آن علاجاتٍ لمرضى الكوفيد ١٩، إن هذه العلاجات كانت عبارة عن بروتوكولات تقرها منظمة الصحة العالمية ونحن نطبقها بخدافيرها دون دراسةٍ، المهمُّ أن نعطي المريض عقار طبي ليعرف أننا نعالجه ولم نقصر بحقه، هذه

العلاجات هي علاجات لا تمت ولا يوجد رابط بينها وبين الوباء، بل إنها أصبحت تهدد حياة المرضى وبالأخص ضعيفي المناعة!

الحياة سجنٌ كبير، نحنُ الفقراء مسجونون وداخل قضبان الفقر، الفقر والخوف هما المتلازمان اللذان يرافقان الفقراء منذ لحظة ولادتهم حتى مماتهم، إنَّ الروحَ لتشقى في الحياة، قد يسأل المرء نفسه لم خلقنا؟ فيجيب عن سؤاله للشقاء والعذاب حُلِقنا، جوابٌ متدمرٌ بوضوح ويعكسُ الحالة النفسية التي يمرُّ بها الفقراء الذين يشكلون السواد الأعظم من البشرية، وما شأني بالبشرية أنا لأهتم بالعراق بلدي أو الأفضل لأهتم بنفسي، أنا ضائعٌ في دواماتٍ من القلق والحيرة، أريدُ أشياءً ولكني لا أملك القدرة على تحقيق ما أريد، فجأة وعلى حين غفلة وتناوم مني، أسمع الموبايل يرنُ فأجدُ أنّ المتصلَ وليد، أخبرني أنه قادمٌ إلى العراق غدًا، ولا بدّ أن يلتقيني، رحبتُ وهلّلت به، أخبرته أنّي سأنتظره في مطار النجف، وليد تركَ أهله بحثاً عن النجاح الذي يرغب به كل الشبان في هذه الأيام، الحالة السوداوية هي السائدة أمام أعينُ الشباب، أخبرته كيف له أن يأتي والوباء آخذٌ بالانتشارٍ؟ ضحكٌ وقال: أنا قادمٌ بمهمةٍ وليس زيارة، أغلقَ الهاتف والحيرة ضربتني، هؤلاء الصغار كيف لهم أن يتحركوا بكلِّ هذه الحرية دون قيدٍ أو مانعٍ، لا الوباء ولا العداء ولا شيءٍ يمنع التجارة أن تزاوَل عملها، التجارة لا بدّ أن تبقى محافظة على توازنها، المستشفى بدأت تعدُّ عدتها إلى إصاباتٍ كثيرة، كانَ الرهانُ أنّ الوباء

يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُقَيِّضَ أَوْ يُقْلَصَ وَيُسيطرَ عَلَيْهِ بواسطة بعض الامور كمنع اللقاءات والتباعد البشري وما شاكل هذا، إنّ الإعلامَ كَانَ مسيراً لتوجيه أنظار الناس إلى الخطورة وليس للسبب، إذ تساءل الناس عن المسبب فالمخطط سبب الفشل في أرجح الظن، إعلامٌ يطبلُ إلى ثقافةٍ لا تمتُ إلى العلم الطبيّ بصلّةٍ، البوصلةُ حُرِفَت، الخطوةُ الأولى نجحت وانطلى على الناس أنّ الأمرَ وباءٌ من المساءِ لأنها غضبت من البشرِ لسوء أخلاقهم وتربيتهم، كأنّ السماءَ كانت غافلة كلَّ هذه السنين ولم يحن الوقت إلا في هذه السنة وهي مشؤومة عند العراقيين، حتى السماءُ تتعاملُ بمنطقِ البشر، هكذا يُشاع في أوساط الناس ونسوا عن عمدٍ أنّهم يسيئون إلى السماءِ بهذا المقياس، كيف للعدل الربانيّ أن يغضبَ كما البشر، وكيف للحق الإلهي أن ينتقمَ كما ينتقم من البشر، بل صوّرَ الربُّ العادلُ أنه انتقم من الأبرياء والفقراء والبسطاء ولم يمسس الأقيياء والأغنياء! هكذا كانت الظنون والتهم تُشاع في حق الرب تعالى وتقدست أسماؤه، حتى الله يريدونه مفصلاً على ما يريدون وما يشتهون، جلسْتُ مع وليد في فندقٍ قرب مرقد الامام علي، كان مشتاقاً للنجفٍ لكنه ليس كما كنتُ أتوقعه، العملُ يفرض قيوداً وقد يقسي القلوب أيضاً، قال وليد: أن الشركة ستأتي بمواد مخبرية للتحليل التي يحتاجها مرضى كورونا والتي لا بدّ من اجرائها، وأتينا بكثيرٍ من الأدوية، التحليلُ ستفرضُ فرضاً على الصحة في عموم البلد كبروتوكول عالمي، أنّ الطبيب لا مندوحة

منه أن يطلب هذه التحاليل، هذه التحاليلُ ستباع على المستشفيات وستباع على المختبرات، استعدت رباطة جأشي وصرْتُ أكثرَ تجلداً ولم يبدو مني أية ذهولٍ أو صدمة، لأستمع حتى آخذَ منه أكثر، وليد أتى بعملٍ وسيخرج بفائدةٍ، الناسُ لا تعلم بأنهم أوراقاً نقدية ليس إلا، يتعاملون بمنطقٍ مالي لا غير، البشر يعيشون بهلع وقلق على صحتهم، الذي يجعل من الشخص يفقد الأمل هو أنه يفقد القدرة على فعل شيءٍ ما.

الوظيفة ما عادت تدرُ خيراً لأحد، الدولة بدأت تؤخرَ رواتب الموظفين لأكثر من اربعين يوماً، إني لأعجب لهذه الدولة، فهي تارةً تشتكي العوز والنقص وتارةً تبذل أموال طائلة على أمورٍ تافهة! أن أكونَ مع وليد خيرٍ لي من أن أكونَ مع الدولة، التخبُّط والاختاء المتراكمة كانت كثيرةً في ظل هذه الأزمة، أزمة كورونا كشفت أن الدولة ليست بحجم الخطر وأنها لا تملك استراتيجية لاحتواء الأزمة، القرارات السخيفة كانت قراراتهم، كنتُ أعلي وأفور غضباً من هذه الحياة التي لم أعد أطيعها، أرى أن تبدأ الدولة بمحاسبة الصغار من الفاسدين والمقصرين ليتسمر صعودها شيئاً فشيئاً، أن تأتي من القمة وتنزل هي مغامرة خاطئة إن لم تكن متدرجاً على الصعود، الهبوط يعتمدُ على الصعود، عكس كل الناس أني كنت أريد أن أجرب الاصابة بالوباء، أن تستقبلَ الوباء أنت خيرٌ من أن يأتيك على غير موعدٍ، الصدمة تشتد عندما تكون غافلاً وتقلُ الخطورة كلما كنت متنبهاً يقضاً، مضى شهر وآخر وغيره، الناسُ في هلعٍ ظاهريٍّ، الدولة فرحةٌ مسرورةٌ بهذا الوضع، إنه يوفر لها أن تتنفسَ بهدوءٍ ومدّةٍ طويلة، الحياةُ مستمرةٌ ولكن ليس كالسابق، كأنّ أزمة كورونا أقبلت نتيجة لسوءٍ في أخلاقِ البشر، التوازنُ في العلاقات كان مضطرباً، القدرُ والحظ والفعل المقصود كانوا قد اتفقوا على أن ينبهوا البشر على غفلتهم ونأيهم عن الإنسانية المحبة، يقررُ مرتضى أن يتزوج هيفاء

ويأخذها إلى مقرّ اقامته في بيروت، يعرف مرتضى الكثير وبإمكانه أن يجد لي الفرصة المناسبة لأكون قريباً من المستر، لكنّ الله قد أرسل لي وليد ليعيد الأمل لي، هؤلاء لا يقربون إلا من ينتفعون منه، الأغنياء رأسماليون، والرأسمالية مذهب لكلّ أغنياء الأرض، وما باقي المذاهب إلا شعار براق يطلقونه حين وحين، الناس عبيد أو سادة لا وسطية بين الاثنين، صار الدوام يعني لي قضاء وقت لا بدّ منه حتى أتجنب الكسل، عاد وليد بعد أن أنهى عمله والذي لم أعرف منه شيئاً، يتحرك بحفة ولا يترك أثراً خلفه، قضى كل أعماله ومضى، التساؤل الذي يراودني كيف له أن يسافر والمطار لما يزل مغلق! لكن هذا السؤال كان يضحك مرتضى عندما كنت أسأله فلا أجد إجابة إلا: أنت لا تعرف شيء فأصمت!

بقيتُ أجّر ذيول خيبي، أنا غريقٌ أو كالغريق في بحر أحلامي وأوهامي، أريد ولا أعرف ما أريد بل كيف لي أن أصل إلى ما أريد، كان لي أملٌ في صديقيّ إلا إنّ الأمل غائبٌ أو غاب عني، حياتي مملّة لا جديد فيها، كنتُ قد ندمت على تطليقي خديجة لكنني اكتشفت أنني كنتُ محقاً في هذا القرار، أن تجد لك شريكاً يفهمك ويعرفك هو ضربٌ من الحظ والنصيب وأنا الذي لا حظّ له ولا نصيب! الفرصُ سانحةٌ لمن يملكون التهيؤ وسرعة استغلال الفرصة التي تمرّ بخطف، لا ينبغي للفشل أن يقوض أركان عزمي وأنا الشاب الذي لم يزل العمر قد تفتح الآن كوردة في أوّل ربيعها، الربيعُ قادمٌ، لعلّ

بشرى تنتظر الناس ويخرجونَ من أزمةٍ وضعتها لهم قوى تعيش على لحوم البشر وتستلذُّ بأنينهم، يأتي الربيع ويمضي والاصابات في تزايدٍ مخيف، الهلع أصاب القلة من الذين يخشونَ الملمات، الصيفُ ودرجة حرارة العراق ربما تكون آية الخلاص، شمسُ العراق تقتل وتُلين الحديد فكيف بها أمام هذا الوباء الجبان والخبث!

أكملت خديجة السنة الأولى في الماجستير، التعليم الإلكتروني كان فاشلاً لأن الطلبة لم يألفوه بعد، ولا حتى الطريقة التي كانت تُلقى عن طريقها الدروس، المرأة إن نالت الشهادة والمال أصبحت في منعة وقوة، إذ سيكون لها ما تستطيع أن تحصل على ما تريده من الرجل! الغريق والمشرّد في مجتمعه هو سيف الذي يعيش حالةً من الاكتئاب لا حدَّ لها ولا وصف، شخصيته مضطربة، لا يشتهي الخير لأحدٍ، يتمنى أن يكون هو الأفضل من كل الأقران لكن نفسه لا تملك ما يستطيع أن يحقق ما يصبو إليه، أوهم نفسه بأنه الأكفأ والأفضل لكن هذا في خياله ليس إلا.

العمل في المستشفى سيؤدي به إلى الجنون، الحالات في تزايدٍ مخيف، لا قلق ولا هم يحزنون، سيكون الدوام بنسبة ٢٥% وهذا بحد ذاته حسنة، نسمع إن الحالات صارت لا تعد والمستشفيات لم تعد قادرة على استيعاب كل هذه الاعداد، إن العالم سيعيش عزلة مفروضة عليه، ولعلها العزلة الثانية التي

فُرضت على البشر، إن العزلة الأولى هي وسائل التواصل الاجتماعي التي جعلت العالم يعيش في عزلةٍ دونَ أن يشعر، يجلسون معاً لكن كل حواسهم في هذه البرامج، إذ العلاقات المجتمعية لم تعد كما السابق ولن تعود مطلقاً، الحياة ماضيةً إلى الأمام ولا عودة إلى الوراء أبداً، المشكلة الكبرى أن التقنيات الحديثة أقبلت بسرعة دون تمهيد ليستوعبها الفرد العراقي كما الكثير من باقي دول العالم، إن التكنولوجيا أقبلت بأحدث ما وصلت إليه إلا أبسط إنسان عراقي، صارت الفوضى في كلِّ شيء، المقاييس المنطقية لم تعد هي التي يُحتمُّ بها، إن العقول خُدرت ولم تعد تستوعب ما يقع أمامها، الفرد أصبح عاجزاً عن فهم وتفسير هذه التقنيات بل إنَّ الركض أعياء وهو يحاول أن يستجمع خيوط التقنية الأولى لتأتيه الثانية والثالثة بل العاشرة وهو ما زال يحاول أن يفهم الأولى، إن الأزمة ثقافية ليس إلا، إذ كلما تطور النظام الثقافي كلما تحسنت حالة الفرد الاقتصادية والصحية وغيرها، إذ أزمة الثقافة هي السبب الأكبر، إننا لا نقرأ وحتى لو قرأنا نقرأ قليلاً هكذا كان يقو سيف لزميله في غرفة المختبر.

يدخل العراق أزمةً حادةً في كلِّ مفصلٍ من مفاصل الحياة، أزمتٌ متراكمة مقصودة، البلد بدأ يغلي على نارٍ أقوى مما مضى، الجميع يسيلُ لعبابه على جسدٍ منهكٍ، شعاراتُ الوطنية صارت مطية وميك آب لكلِّ من يشعر في قرارة نفسه أنّ له نصيبٌ في هذا البلد، تتداخل الأصوات وتتشابك

القناعات مع بعضها البعض، يأتي أحدهم ليضيف عقدة إلى العقدِ الكثيرة التي وضعت أمام المنشار، ليكن ما يكن المهمُّ ألا ندعَ الكرة تذهب لغيرنا، التظاهراتُ الحاشدةُ هي تظاهراتٌ جوكرية ترعاها دولٌ متربصةٌ بالعراقِ وهذه الدول لا يروقُ لها أن ترى الأمنَ والسلمَ في العراقِ مستتباً، لنتنظر القراراتُ وبعدها نوعز إلى رجالاتنا أن ينزلوا إلى الشارع ويفضوا هذا الجمع، الرهاناتُ كانت في تحييد التظاهرات وتخريفها، فوضعت الكثير من الشوائبِ، ووضعت الكثير من السليباتِ، أُخترقت التظاهرات بكلِّ شيءٍ إلا في شعاراتها، الشعاراتُ التي كانت هي شعارات لو كانت وحدها لكفت، إنَّها شعارات براءة جداً، ولها وقع السحر، بل هي كالصاعقة كانت على أسماع ومتصدي المشهد القيادي، أن تتزامنَ أزمةٌ إثر أزمة فهذا يجعل الحلَّ يبدو صعباً للغاية على أية شخص، الإهمالُ والتقصيرُ كانَ متعمداً، إن الغاياتِ معروفةٌ للذين ينظرون في ليالي العتمة.

قررت الوزارةُ أن تُشددَ في فرضِ حظرِ التجوال، الفقراءُ التزموا وانقطعت أرزاقهم، أما الأغنياءُ فلا شيءَ يمسه، لديهم ما يكفيهم ويزيد، تقعُ الدواهي على رأس الفقراءِ وكأنهم المعنيون بكلِّ أزمةٍ، أنا لم أعد أتحمّل أكثر، نفسي تتوق أن أعيشَ في مكانٍ لا أرى الظلم، وكما قيل وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة، إنَّ ما نمرُّ بها هو ظلم بعضنا لبعضٍ، البشريةُ بدأت تُكشّرُ عن أنيابها وتتحول إلى حياةٍ همجيةٍ بثوبِ حضاريٍّ لماع، إنهم بهذه

الصراعات يُثبتون النظرية التي تقول أنهم في اصلهم حيوانات ومفترسة أيضاً، من طبيعة المواطنين العراقيين أنهم لا يثقون بالمستشفى الحكومي ولا يعترفون بما تقدم من خدمات، إنهم يهتمونها على الدوام بالتقصير، صارت الناس تلجأ إلى الأطباء لعياداتهم، وجدت لي وظيفة بعد الدوام في عيادة أحد أطباء المدينة الشهير، كانت العيادة ذات شهرة واسعة، إن الطبيب الذي أعملُ عنده كان قد اشترى جهازاً كبيراً تكلفته كما يزعم تكلفة كبيرة، لتشخيص مرض كورونا ثلاثة علاماتٍ، عينة الدم ومسحة الأنف والدم أو المفراس، ولما لم يثق الناس في المستشفى لجأوا إلى الأطباء في عياداتهم ليأخذوا العلاج والتحليل عندهم، المفراسُ بدأ يجني للأطباء الكثير من الأموال، أنا أعرفُ أنّ المشكلة هي أكبر وأعمق من الجميع ولكن كيف لي أن أعرب عن هذا وأنا الذي أقتات من جيوب الفقراء! الأطباء يأكلون أرواح الفقراء، إن مهنة الطب لما أصبحت بهذا الاسم فقدت قيمتها الانسانية، كان الحكيم هو الذي يعالج المرضى نفسياً وجسدياً أما اليوم أمسى الأطباء يعالجون الجسد بقبض الأموال وامتصاصها من جيوب الفقراء، البشرية بدأت تعيش حالتها الطبيعية، كلما تطورت الحياة أكثر كلما صارت البشرية أكثر تفناً بالنزاع، الحالة الطبيعية هي النزاع والصراع وما السلم إلا عرض يمر فترة لعلها فترة راحة ليستعيد المتنازعون أنفاسهم وبعدها يواصلوا عراكمهم وصخبهم، الحالات بلغت في اليوم الواحد أكثر من سبعين حالة، أنا كنتُ السكرتير

الذي يدخلُ المراجعين إلى غرفة الفحص، العيونُ مترقبةٌ لنتيجةِ الفحص، بعضهم يعيدونَ الفحص مرةً أخرى، كنتُ أحاسِبُ الناسَ وأستلم منهم تكلفةَ الفحص، استدانوا تكلفةَ الفحص وأتوا لينفقوها هنا، يا الله يا الله رحماك رحماك من هذه الجشع الذي نعيشه، أنا لم أعد أتحمّل العملُ وقررتُ أن أتركه، نفسي حائرةٌ في بحرٍ من الأمواج المضطربة، تركتُ العملُ قد رضيتُ عن نفسي أبّما رضى، راتي الرسمي كان لذيذاً وأشعر بأنه يرضي نفسي، الوباءُ يشتدُّ والمأساة تشتدُّ معه أكثر، مستر دايفيد سيشتري الوزارة برمتها لو لم يزاحمه أحد من الأحزاب.

وليد لديه علاقاتٌ واسعةٌ بين في لبنان والعراق، بل أخذ يزاحم مرتضى في المكانة، وليد يدخلُ ويخرُجُ من العراق متى شاء، هذا اللغز حيرني وجعلني أتساءل بالكيفية التي تسمح وتُمكن له كل هذا، صرت أراه كثيراً على الرغم من منع شركات الطيران إلا للضرورات وما أكثرها!

وليد أصبح يلتقي صباحاً مع مكتب الوزير، وأخرى مع كادر الأطباء، وثالثة مع مسؤولي الصحة، يأتي بأشياءٍ عجيبة، كأنّ يأتي مُروجاً لعلاج يوسع القصبات، أو بعض الفيتامينات، الأطباء كانوا على الدوام يأخذون ويقبلون بالعروض التي يُقدمها لهم، وليد لديه قدرةٌ في الاقناع عجيبة، إنه يجيّد الحوار السلس والوسيلة التي ينفذ من خلالها إلى المقابل، كان المستر دايفيد قد قربوا

إليه أكثر لأنه وجد به ما يريده، كان وليدٌ طموحاً في أن يضع لنفسه منزلة، الترويج لمشروع ما لا بدّ أن يكون لك فائدة منه حتى يخرج الكلام عن إيمانٍ بما تقوله، وهذا كان عليه وليد، إذ كانت لديه نسبة في العلاجات التي تُباع إلى دوائر الصحة، وهذه النسبة جعلته يكون حريصاً للغاية في الترويج وعقد الصفقات العلاجية مع دوائر الصحة.

الفترة التي قضيتها في العيادة أعطتني مزيداً من التبصر في حقائق كثيرة، كان الطبيب الذي يعمل في المستشفى ليأخذ نصيبه من طبيب العيادة، كان طبيب المستشفى مُرحباً به كلما أرتفع عدد المراجعين أكثر، كان راتبه في المستشفى ذاته في العيادة إلا أنّ ساعات وجهه العمل يختلف، في المستشفى أعمل لساعتين فقط حسب تقسيم ساعات العمل بين الزملاء، أما في العيادة فلا مجال للتنسيق ولا لهدر الوقت وضياعه، الفرق بين القوضى والنظام هو وجود رقابة صارمة تُناسب وتفرض نفسها على الفرد، لا يمكن للفرد أن يكون منضبطاً بالغاً ما بلغت منزلته وخلقه، لا بدّ أن يقصر ولا بدّ أن يتهاون في العمل، تركت العمل في العيادة لأعمل في المستشفى وصيدلية أهلية، الصيدلية كانت أقرب إلى نفسي بحكم أنّها لا تحتاج إلى شهادة في الأدوية ولا إلى مهارة في العلم، تحتاج أن تحفظ أسماء العلاجات وكيف تفهم الوصفة الطبية وتفتح المراجع بها، إنّها لا تختلف عن بائع الأحذية أو أدوات السيارة، الفرق هنا أن المريض لا يعامل لأنه لا يريد أن يقلل من أهمية

صحته وقيمتها بهذه العملة، هكذا يرى الكثيرون، العلاج لم يشفِ أحداً، ولا قدرة له على الشفاء مطلقاً، ولا يوجد دواء يؤدي وظيفته دون أن يُحدث خللاً في عضوٍ أو جهازٍ من أجهزة الجسم، إنّ العلاج الكيميائي لا قدرة له على العلاج إلا بقوة إيمان الفرد بأنّ هذا العلاج هو الشفاء، فكم هي العلاجات التي تُؤخذ دون أن تعالج الجسم أو تخفف من حدة أوجاعه!

كنتُ أعملُ في حرقَةٍ ولكنّها حرقَة من لا يملك إلّاها ، القرارات التي كانت تصدرُ من وزارةِ الصحة كانت متخبطة جداً مما جعلها أضحوكة بين المواطنين، إن قراراتهم كانت مدعاة للسخرية لا للتنفيذ، كان النقاشُ حامي الوطيس بين المنتسبين، الاتفاقُ كان بين مسؤولي المستشفى دون الرجوع إلى قرارات الوزارة التي لا يثق ولا يحترم بها أيّ منتسبٍ، إدارةُ المستشفى أوكلت مهمة تقسيم العملُ بين الموظفين إلى أنفسهم، الكادرُ الطبي لهم خطة، الكادرُ التمريضي لهم خطة، الكادر المختبري لهم خطة، وكلّ يعملُ بحسبِ مسؤوله، الفوضى كانت نافعة للجميع، أصبح الموظف يعمل بما معدله ستة عشرة ساعة في الشهر، هذا كله بفضلِ العلاقات بين المسؤول والموظف، كنتُ غير راضٍ لكنّ عليك أن تصمت وتصمت حتى لم يعد لك صوت مطلقاً، الفسادُ لا يُعالج بالوعظ والارشاد أو السلوك الجيد، علاج الفساد هو العقاب والحزم الصارم، هذا التهاون هو ما شجعت عليه الوزارةُ بقراراتها غير المدروسة مما مكّن للموظفين أن يعبثوا كل هذا العبث ويستهنوا بالعملِ.

العالمُ أصبح يعيش الغربة القاتلة الموحشة التي لا بدّ له أن يمرّ بها، العلماءُ ظنوا بأنّ الفلسفة كسلٌّ عقلي وفراغٌ وهمي لمن لا يجد في نفسه الكفاءة العلمية ليقدم ويساهم في تطور العلوم وتفسير النظريات الجديدة، لكن في أزمة كورونا وقف العلم حائراً يتلدد، بل أصاب العلماء الإعياء وهم يركضون ويبحثون وينقبون عن وسيلةٍ يدرؤون بها الخطر عن العالم وأنفسهم، الناسُ بدأت تلجأ إلى الفلاسفة ليجدوا تفسيراً منطقياً لهذا الوباء وهذه الحالة الاستثنائية التي يمر بها العالم أجمع، إنها حالةٌ صعبةٌ معقدةٌ للغاية، الأطباءُ صاروا في موقفٍ حرجٍ، فهم يرون أن الناسَ بدأوا يمتنون دون سببٍ طبيٍّ مقنع، راحوا يبحثون عن الآثار الجانبية ليقروها حقائقاً ثابتة لكنهم فشلوا أيضاً لأن الكيسات كانت مختلفة من مريضٍ عن آخر، الوباءُ حالةٌ نفسيةٌ لها قوةٌ إيجابيةٌ عجيبة، والعراقيون يعيشون أفسى وأمض حالةٍ من حالات الوجد والقلق النفسي، بل إن البشرية جمعاء كانت تعاني بشكلٍ وآخر من القلق والأزمة النفسية، العودةُ إلى الطبيعة الأولى قد تبدو هي الحل أو الموازنة بينها وبين التقنيات الحديثة، العودةُ مستحيلةٌ والتقنية لا يمكن لها أن تُقيد وتقف عند حدٍ ما، إذن لا مندوحة من أن تعيش البشرية عرضةً لأيّ عارضٍ في ليلٍ أو نهارٍ يفتك بها ويهددها في الصميم، العالمُ صارَ يثير مشاكل نفسية كثيرة، هذه المشاكل كانت تأخذ من نفوس الكثيرين الشيء الكثير والكثير

جداً، إذ تسلب منهم لذيد العيش والرغد القليل الذي ينعمون خلاله لبرههٍ من الوقتٍ قليلة.

الزواجُ نعمةٌ لمن يعرف حقها، هكذا سمعت أمي ترددُ مع أبي محاولةً اقناعه ليكلمني في أمر الزواج، أن يبقى ولدنا أعزب فإنّ الله سيحاسبنا، كنت أضحك على هذه الأقوال إلاّ إني كنتُ دائماً أصددهم وأرفض ليس لأني وقعت في تجربةٍ فاشلةٍ، بل إنّ نفسي لم تستقر حتى الآن، أنا الذي لا أناسب أيّ امرأة ولا تناسبني أيّ امرأة، لا أريد أن أجعل لي شريكاً وأنا الذي رفضت أن تشاركني نفسي!

لا قلقَ على مستقبلٍ ما دمت تستلم راتباً من الدولة، العقليةُ السادةُ أن تبقى أسيري لهذا التقزيم الذي وضعتنا به الدولة، لا نريد إلا الراتب ولا همّ لنا إلا به، وربما سيأتي يوماً قريباً لا نطال به لأنّه لم يعد ذا قيمة تنفع، قيمة المال بما يأتي به.

بدأت الحالاتُ تزداد بين المنتسبين، بل أصبح الجميع ينتظرُ متى يأتي دوره ليصاب بهذا الوباء، عمّي البالغة العمر خمسين عاماً، أصابتها جلطة دماغية قبل سبعة سنوات، جعلتها قعيدة بل كانت آخر أيامها ممددة، أصبحت عالة على أهلها، على موعدٍ مع المرض، وعلى تهيؤ له واستقبال من كلّ الأهل، تموت بين يدي بنتيها، ولعلّ العذاب ما بعد الوفاة يفوق ما قبل

الوفاة، لا بدّ من شهادة وفاة تصدر، وشهادة الوفاة هي العذاب والذل والمهانة لأهل المتوفى، أخذ الأطباء يؤرّجون بنا هنا وهناك، لم يقبل أيّ طبيبٍ أن يكتب شهادة وفاة لأن المتوفية توفيت في منزلها ولا يعلمون سر موتها! أنتم أصحاب الاختصاص يا حضرة الدكتور فما هو الاجراء المناسب لنكمل هذه المعاملة بسرعة، قال: لا بدّ أن يكتب طبيها الشهادة، اتصلنا بعيادة الطبيب بعد وساطةٍ قال: انتظروا حتى الساعة الثالثة عصراً يأتي الطبيب إلى العيادة وسيكتب لكم الشهادة وتقرير عن الحالة، اطمئنوا سأتوسط لكم عند الطبيب لينهي معاملتكم أول المراجعين! هكذا قالها السكرتير بكلّ صلافة ووقاحة، طلبتُ منه أن يعطيني رقم موبايل الطبيب فردّ بأخبث ردّ: والله لا أستطيع أن أعطيك الرقم ولا أستطيع أن أتصل به لأن هذا لا يكون حتى يطردني من العيادة شر طرده وهذا دون أن تحصلوا على الشهادة في هذا الوقت، إنها الساعة العاشرة صباحاً، والطبيب يتواجد في الساعة الثالثة، بمعنى أننا سنبقى ننتظر خمس ساعات، أكرام الميت دفنه وبسرعة، لكننا أبقينا الجنة في الشمس اللاهبة من شهر تموز والساعة بلغت الثانية عشرة مساءً، كنا في الظلّ والجنّاة في الشمس، أنا كنتُ مجازاً ولم أرتدي الصدرية الطبية لأعرف نفسي لطبيب المتواجد، لجأت إلى زميلٍ لي ممرض، وطلبت منه أن يأتي معي بملابسه ليتوسط لي لهذا الطبيب ليكتب لي ورقة إلى الطب العدلي، الطب العدلي أرجعوننا ثلاثة مرات ما بين دار الأطباء

وبينهم، هذا يرمينا إلى هذا ونحن والجنّاة تارة نكون عند هذا وأخرى عند ذلك دون أن يأتي الحل الأخير، هذا الممرضُ دخل على الطبيب الذي لم يعرفه ولم يسمع عنه حتى، ما هي إلا لحظة حتى أتى بالورقة المشؤومة المكتوبٌ بها هذه الكلمات: أرجوا منكم إنهاء معاملة شهادة الوفاة بالسرعة الممكنة مع الختم والتوقيع واسم المتوفّاة، ذهبنا إلى الطب العدلي فأخذوا الورقة فقالوا: ادخلوا الجنّاة إلى الثلاجة فوضعناها وخرجنا ننتظر، ساعة ونصف حتى انتهت الاجراءات، توجهنا إلى مغتسل الصدرين في مقبرة وادي السلام، الساعة الواحدة والنصف ودرجة الحرارة خمسون درجة مئوية، الشمسُ لاهبةٌ حارقةٌ، الدموعُ جفت، لم يعد يبكي منا أحد، صار الجميع يهرول إلى السيارة ليفتح مكيف السيارة ليحفف هذا العرق والنار التي في كلِّ منا، أتمنا الدفن بسرعةٍ خاطفة، رجعنا إلى البيت متعبين نبحت عن الراحة، تفرق الجميع خوفاً من التعبِ أو خوفاً من كورونا، الصحةُ أقرت إن الاختلاط يؤدي إلى انتشار الوباء بصورةٍ أسرع، كنا قد نشرنا وقلنا: لا عزاء إلا في قلوبكم، ولن نستقبل المعزين امتثالاً لأمرِ المرجعية الدينية! لا أعلم لماذا نحشر المرجعية الدينية في كلِّ أمرٍ من الأمور حتى التي ليست من اختصاص الدين في شيء، الأقاربُ وبعض الأصدقاء لم يُستثنوا من هذا الطلب بل أقبلوا إلينا معزين، إنهم أقبلوا إلينا لأنهم يجدونه عيباً وتقصيراً ألا يأتوا إلينا،

وأقيم العزاء في البيت حتى كان الحضور أكثر من سبعين شخصاً في البيت
موزعين بين الصالة والغرفة وحديقة البيت.

نسائم الصيف تقبل، إن الفضاء يراقب ما يقع داخله عن كثب، هَجَسَ
لسيف أنه واقع لا ريب في محنة ما وشيكة لا محال، سيأتي كل ما هو آتٍ
وليذهب كل ما هو راحل، لا ينبغي أن يركن الفرد إلى الاحباط والهزيمة أمام
المواقف، هل الحياة إلا مواقف! والمواقف تريد ثباتاً وصموداً لا انكساراً
وهزيمة، يقرر مرتضى أن يفتح فرعاً خاصاً لتجارة المواد النسائية مثل المكياج
أو بعض الأدوية التجميلية، إنها تجارة رابحة في كل وقت، النساء مهتمات في
أشكالهن، إن الجمال هو الشيء الذي يتكلمن به، بيروت لها مراكز تجميل
كثيرة، لنفتح فرعاً في بغداد والنجف، لا يحتاج الأمر إلى أن نستغل
علاقتنا، سنستعين بك يا سيف على هذا، أنا لم أبدي أي ردة فعل، لأني
لا أعلم ماذا سيكون عملي ودوري في هذا المشروع، إن التجارة هي التي
تحرك العالم وإن التجار هم الطبقة الأكثر غنى، يتلاعبون في اقتصاد الدولة
 ويفرضون قيوداً خانقة في بعض الأحيان عليها أكثر مما تفرض هي عليهم،
العالم يحكمه التجار وشركاتهم، وليس الأنظمة أو الحكومات، كن تاجراً ذكياً
ستكون رجلاً ناجحاً ينتفع بك العالم أكثر أو يخسر بسببك العالم الكثير.

بعد أن رجعتُ من مجلسِ العزاء، بدأتُ أشعرُ بحرارةِ جسدي ترتفعُ قليلاً، ثم تدرجياً بدأتُ الحرارة ترتفع وترتفع لتجعلني طريحَ الفراش، زوجتي أخذت قطعة من القماشِ وتغمسها في الثلج وتضعها على جبھتي وخصري وقدمائي، الحالةُ بقيت هكذا ليومين متواصلين، لم أقوَ على الحركةِ والنهوض، خلال مدة شهرٍ كاملٍ لم أذهب إلى المستشفى لعمليةٍ جراحيةٍ للخصية، أعطاني الطبيبُ إجازةً لمدةِ اسبوعين وأعطاني مسؤولَ الشعبةِ أسبوعين، ثمانية وعشرون يوماً بإمكانني أن أستلم راتي لكن لو وصل الحد إلى الثلاثين فإنه هنالك خللاً ما، يؤدي إلى قطع راتي أو تقليله، المهمُّ أني رتبتُ أموري مع المسؤول ومع مسؤولِ البصمة وبذلك ضمنت أن راتي لن يمسسه قطعٌ، يومٌ واحدٌ بعد غيابٍ لأكثر من شهر عن الدوام، هذا اليوم أكملته بالكاد، كنتُ جالساً على الكرسيِّ ولا أستطيع الكلام حتى، رجعتُ إلى البيتِ وبدأتُ حالتي تزداد سوءاً، لم أنتظر كثيراً حتى طلبت من أخي أن يذهب بي إلى ممرضِ الحيِّ الذي داوى وشُفِّي عليه يديه المئات، هكذا كنا نعتقد بهذا المضمداً، إذ شاعت مقولةً، أن زرق إبرتين عند أبي أحمد كفيلاً بأن تشفيك تماماً من أيِّ علةٍ، أخذني أخي إلى الممرضِ الذي لا يعرف إلا أن يكتب هاتين الحقتين، حقنة العضلة بحقتين ورجعت وأنا أظن أنَّ حالتي بدأتُ تتحسن، وبالفعلِ بدأتُ أشعر بأن حرارتي بدأت تعود إلى طبيعتها، الشهيةُ للطعام ما زالت موجودة، لكنني صرْتُ أشعر بأنَّ صدري يؤلمني، الزمان كان

هو الشهر السابع من السنة وبالتحديد يوم ٢٠٢٠/٧/١١، هذا التاريخ بدأت أشعر بأبي لا أستطيع التنفس بصورة طبيعية، كنت أردد مع أبي بأني سأجلب الوباء إليهم جميعاً حالما أبدأ الدوام، أبيّ كان يعرف أنني سأصاب بالوباء بحكم قربي من المرضى ومكان العمل الموبوء، أرسلت رسالةً إلى صديقي اختصاص الطب الباطني، شرحت له حالتي عبر تطبيق الماسنجر، كان يرذ عليّ، بضرورة إجراء تحليل التيفوئيد، كنت وإياه نشك بأن أعراضنا هي أعراض الإصابة بالتيفوئيد لا غيره، أجريت تحليل التيفوئيد فظهرت سالبة، هنا أرسلت إلى الطبيب التحليل فأجاب اذهب وأعمل فحص المفراس للصدر، أتشك بأني مصابٌ بالوباء يا دكتور؟ لا أشك بل أنا متيقن، اذهب وأعمل فحص المفراس لأعرف حجم الضرر الذي أصاب الرئتين، كان اليوم الخميس عصرًا، انتظرت إلى يوم السبت لأني لا أريد أن أحسر مبلغاً للفحص، إن الفحص يكلف ما يقارب ١٧٠ دولار، سأذهب إلى المستشفى وأجري هذا الفحص، في يوم السبت ارتديت صدريتي وباج التعريف، ودخلت على طبيبٍ في إستشارية الباطنية، سلّمت عليه وقلت له: أريد منك ورقة لأجري فحص المفراس، فكتب اسمي وختم، الناس واقفةٌ بطابورٍ تجاوز الخمسين شخصاً، كلهم يطلبون ان يكتب لهم الطبيب تحويل إلى المفراس لكنه يأبي، لأن الطبيب له نسبةٌ في العيادة الخارجية، ذات يوم كنت أمزح مع الطبيب الذي عملت معه في العيادة عن

سعر الفحص لماذا كل هذه التكلفة فأجاب: إن لدي شركاء يا سيف
كثيرون جداً، كيف يا ترى؟ ضحك وقال: كثيرون والله يا سيف ولا بد لي
أن أخصص له نسبة حتى يرسلوا المرضى لعيادتنا، تذكرت في هذا الموقف
تلك الكلمة، أخذت الورقة ومضيت إلى الفحص، في غضونِ عشرون دقيقة
أخذت التقرير الذي أكد إصابتي بالوباء، أخي كان معي، بل إننا نمشي
سويًا، بل البارحة كنتُ قد أغميَ عليّ وظنَّ أهلي أنني سأموت، البارحة
أخذني أبي وأخي إلى طوارئ المستشفى التي حُصِّصت لمرضى كورونا، كان
الاوكسجين يتراوح ما بين ٧٠ و ٨٠، بقيت لثلاث ساعاتٍ على
الاوكسجين، سُحنت رئتايَّ بهذا الاوكسجين الذي أضرب أكثر مما نفعني.

رجعتُ إلى أهلي محبطاً، منهاراً، كأني سأموتُ في لحظةٍ لا أعرف متى تكون،
القلقُ أرهقني، صرْتُ أكثر خوفاً من ذي قبل، الحالةُ المزاجيةُ أصبحت لا
تسر، استقبلني أهليَّ برحابةِ صدرٍ، لم يتحمل أبي أن يراني بهذه الحالة حتى
ضممني إلى صدره وصار ييكي بحرقه عالية، أقبلت أُمي لتأخذني من صدرِ
أبيّ لتضميني إلى صدرها، أخذوا ييكون وييكون حتى بكى الجميع لحالتي،
الساعةُ الثانيةُ عشرة مساءً، بدأت الاتصالات عليّ، لا أستطيع الرد على
أحدٍ، أعطيت الموبايل لأخي وصار يكلم الناس نيابةً عني، اتصلت بطبيب
الباطنية صديقي الذي تابع حالتي منذ البداية، أخبرني بضرورة أن أذهب إلى
مستشفى الأمل التي حُصِّصت لأمراض الوبائية والتي كان كورونا نصيبُ

منها كبير، لا يدخلُ احدٌ إلى هذه المستشفى إلا بتحويل، أخبرني الطبيب أنه سيكون متواجد في الساعة السادسة مساءً، ذهبت مع أبيّ إلى المستشفى بعد أن أخذني عمي، الجميعُ أخبر عمي ألا يأتي لبيتنا بعد أن ثبت خبر إصابتي، الناسُ صارت تخشانا كثيراً، أخذوا يتحدثون عنا في كل أحاديثهم، كأن الوباءَ شيءٌ معيب أو عار، حتى إن أخي نشر عبر صفحته على الفيس بوك كلمة قال فيها: أيها الناس هل يعدُّ المرضُ عاراً في هذه الأيام؟

هذا التساؤل جعلني أتعجب من هؤلاء الناس، بدأت صفحات الفيس بوك تنشر خبر إصابتي حتى بلغت عدد الصفحات أكثر من مئة صفحة، وبعض الصفحات كانت ممولة، الناسُ نشروني إشهاراً بضرورة عدم الاقتراب مني ومن بيتي وليس للدعاء، الدعاءُ لو كان صادقاً لما أصبت اصلاً أو لَشُفيت في الحال! النشر عبر الفيس بوك هو لزيادة عدد الإعجابات أو التعليقات التي تدعو بكلماتٍ كاذبة ليس إلا، لم أطلب من أحدٍ أن ينشر خبر إصابتي، ولم أرضَ من أحدٍ نشرًا، لكن الجميعُ نشروا دون إذنٍ مني حتى، رتبَّ لي الطبيب سريراً في ردهةٍ مميزة، نظيفة نوعاً ما، دخلتُ إلى مستشفى الأمل وقلبي يكاد ينقبض من هول ما أرى، كنت الشاب الوحيد بين هؤلاء المرضى، مررت على الردهاتِ فلم أجد أحداً بسني، ازدددتُ خوفاً، أيعقل أن أكونَ الشاب الوحيد الذي ساءت حالته لهذه الدرجة، نمثُ على السريرِ وطلبت من أبي المغادرة، ودعني ودموعه تنزل كقطرات المطر، أخبرته

بأني قويّ ولا خوفٌ عليّ، خرجَ أبي وبقيت أشعر بغربةٍ روحيةٍ، صرت أتخيل الموت كيف يكون، أيعقل أن الرب سيحاسب المرضى الذين يصابون بكورونا؟ ما هذا العدل من الله أن يحاسب البشر على وباءٍ حُلِقَ ليقتلهم، ويأتي هو مكماً لهؤلاء القتلة؟ حاشا الله من كل هذه الأقوال، سينجيني وسأخرج سالمًا، هكذا صرت أوحى إلى نفسي بأني شابٌ ولا ينبغي لي أن أكونَ بهذا الحال، الساعةُ بلغت الثانية عشرة ليلاً ولم يأتي إلينا أحد، مضى اليوم الأول بأقصى ما يمر، لم أتم أبدأً، صرْتُ أردد بعض ما أحفظه من الأدعية والاستغفار، أتى الصبح وأنا ما زلت أشتهي النوم ولكن لا أريد أن أنام، في الساعةِ لثانيةِ عشرة مساءً، كان هذا الوقت وقت إعطاء العلاجات للمرضى الذين لديهم طبلات، أتاني صديقي الطبيب وفتح لي الطبله وكتب العلاجات لي، العلاجاتُ التي كتبها علاجاتٌ لا تعالج فايروس كورونا ، هي عبارة عن أدوية لتوسيع القصبات الهوائية، والفيتامينات الكيميائية، وعلاج الصداع والنحول، بقيت أنتظر الساعة الثانية عشرة صباحاً والذي هو موعد إعطاء العلاج الثاني، لأن العلاجات كانت مقسمة لكل إثنا عشرة ساعة، المرضى لم يعطوني العلاج لأني لم أضع الكانيولا في الوريد، طلبت من أبي أن يجلب لي العلاج، كانت تكلفة العلاج ٨٠ دولار، كنتُ أتوسل وبمعسول القول من المرضى أن يضعوا لي الكانيولا حتى آخذ العلاج، وبقيت هكذا أتوسل حتى أتى اليوم الثالث، توسلت من أحد المرضى إن لم يضع لي

الكانيونولا أن يسلمني واحدة وأنا أضعها في وريدي، وأخيراً وضعت الكانيولا وأعطيت العلاج، كان عبارة عن أربعة حقن تعطى وتخفف مع بطل المغذي.

الوقت لم يعد ملائماً، صارت الناس تعيش الهلع مما يجري أمامها، أن تخلق المشكلة وتمسك مقاليد الحل بيدك لتتلاذ بأُن الناس يعيشون بصراعٍ فأنتم لعيّم وأنائي، الانسانية أن ترى غيرك فتحزن لحزنه وتفرح لفرحه لا أن تخلق الحزن والمصيبة له، هذا ما كان يُشاع في هذا الوقت، العراقُ سيعاني الكثير من الأزمات، لأنّ وجوده على الأرض مشكلة، فهو واقعٌ بين امبراطوريات خنفته حتى كاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لولا صبره لما بقي لهذا اليوم قائماً شامخاً، يمثلُ صبر العراق بصبر الجمل الذي يتحمل الكثير، هذا العراق تحمل الكثير وعليه أن يتحمل تبعات وما تجره أزمة كورونا التي اكتسحت العالم على موعدٍ مسبقٍ متفقٍ عليه، قضيت ثلاثة أيامٍ لم أتم أبداً، كانت نسبة الاوكسجين مستقرة عند ٦٥، رثنائي أُرهننا كثيراً، الوباءُ دخل إليهما بحبثٍ فأخذ يضرب بهما يريد أن يدمرهما ليقضي على حياتي بقتلهما، أبي الوحيد الذي كان يأتي إليّ بعد أن غاب الجميع عني، لم يكف أبي عن البكاء، صار لا ينام الليل لأني كنت قد صرفت النوم عنه، الاتصالات لم تنقطع عني، وصل الأمر بأن اتصلي بي وزير الصحة ومحافظ المدينة وكثير من القيادات السياسية، التوصيات على قدمٍ وساق، الأطباءُ اهتموا بي نتيجة الاتصالات التي كانت تأتيهم، في صباح اليوم الثالثٍ أقبلت ممرضةً واحدة، مرتدية بدلة

العزل التي لا يبدو منها إلا العيون، كنت أول الردهة، بدأت تقرأ طبلتي لتعرف علاجي الذي أقره الطبيب، لم تنظر لي ولم تضع عينها بعيني، وضعت جهاز الاعطاء وأعطتني أربع حقن، وبدأت تعطي العلاجات لكلّ المرضى الراقدين في الردهات، دعا لها الجميع بأن يرضى الله عنها ويوفقها في حياتها وآخرتها، لم تكلم أحد إلا بكلماتِ الشكر، رأيت بها سرعة ومهارة في إعطاء العلاج، ولها يدٌ كالبلسم إن وضعت على جسم المريض شفي من السقم، خرجت بعد أن أعطت الجميع العلاج وشكرها الجميع.

كنت راقداً مع أحداً عشرَ مريضاً، أصغرهم كان عمره أربعين عاماً، وأكبرهم عمره ثلاثة وسبعين عاماً، أنا أصغر المرضى جميعاً، لكلّ مريضٍ منهم مرافقٌ أو أكثر، بل رأيت العجب العجاب، إذ كان بعض المرافقين يبقى على مدار الساعة يقظاً، يجلسون تحت السرير، ويقفون منتبهين لأيّ حركةٍ أو سكونٍ من مريضهم، رأيت أحمد الذي كان مرافقاً لأبيه، أحمد بقيّ ثلاثة أيام لم ينم إلا ساعتين أو بعضهما، كان أحمد يأخذ والده للحمام في أيّ ساعةٍ، يدخل معه ويقوم بتغسيله وتبديل ملابسه وشم تسريح بقايا شعره المتناثر ووضع بعض العطر على وجه والده، والده كان صعباً للغاية، كان مزعجاً حتى بالنسبة لنا نحن المرضى، كان كثير الصراخ دون سببٍ يذكر، أما ماجد الذي كان مرافقاً لأخيه عادل فهو قد ضرب أروع الأمثلة في البر، كان ماجد طالباً في كلية القانون ويمارس امتحاناته النهائية وهو تحت سرير أخيه، كان

عادل ضابطاً كبير، وزنه أكثر من ١٣٤ كغم، أرهق ماجد كثيراً لأنه كان لا ينهض إلا بصعوبةٍ بالغة، ألهمتني هذه المشاعر لأقصها على الجميع وأنشرها على سلسلةٍ قصصية في صحفٍ عراقية أو عربية، هذه القصص تخالف ما شاع من أن الكثير تحلّى عن ذويه لأصابته بالوباء، كثيراً من الأخوة والأبناء وربما الآباء لم يبروا ذويهم خوفاً من انتقال عدوى الإصابة إليهم، لكن ما وجدته في المستشفى هنا يعكس كل الكثير، أصبحت كورونا الغريبال الذي تغربل به المحبة، مهما حصل فإنّ الجبناء لم يعطوا من أنفسهم شيئاً بعكس الذين وقفوا يتحدون الوباء وجهاً لوجه، كأن الوباء أعلن هزيمته أمام إرادتهم القوية وتفانيهم في الاخلاص لذويهم، كنتُ أشتهي أن تأتي ساعة العلاج لتضع هذه الممرضة يدها على يدي وهي تفتح الكانيولا ليمشي العلاج في الوريد، أتى الليلُ وقد بدأ رقاص الساعة يكاد يدق على وتر قلبي، تأتي الساعة الموعودة وتمضي الدقائق، كنتُ أتمنى لو استطيع النهوض والمشي لأسأل عنها، لكنني كنت لا أقوى على أن أتقلب في سريري، حالي كانت بغاية السوء، وصلت الساعة إلى الواحدة والنصف صباحاً، فجأة تدفع الباب علينا، فإذا به ممرض يدفع بعربة مليئة بالعلاجات، كأن القوة دبت في جسدي وجلست، خاب أمني إذ لم تأتي الممرضة ذاتها، سحرتني عيونها، كانت العينان واسعتان سوداوين، رسم الكحل كان بطريقة جداً محترفة، إذا أطبقت الجفن بدا لك جمال المسحوق الذي ظللت عيناها به، بدأ يقرأ

طبلتي، بدأ يضع الحقن بين يديه، إذ تدخل خديجة، نعم سمعته يناديها مباشرةً: خديجة تعالي عليك هؤلاء وعليّ هؤلاء، من سوء حظي أنّي كنت من ضمن هؤلاء الذين تكفل الممرض بهم، أثارني الاسم أيعقل أن تكون هي!

صار الحصول على جهاز التنفس يعدّ إنجازاً يحسب، كنتُ أشاهد في الموبايل كيف أن الدول العظمى كأمریکا أصبحت تتنافس الولايات على السرير في المستشفى، انهار النظام الصحي في أوربا، القوية، الحضارة، المتمردة، المتسلطة، ها هي تنهار أمام فايروس بسيط، فقلت كيف حال العراق إذن! إذا كانت أوربا الجبارة انهارت وستنهار أكثر فكيف بالعراق الذي يعد من البلدان الضعيفة والمنهارة أصلاً، حالة العراق تبشر بسوءٍ قادم كبير، المرضى يتزاحمون على الدخول إلى المستشفيات، يتزاحمون على عمل المسحات، الذلّ والهوان لجميع الذين أصيبوا، الذين أصيبوا بالوباء كأنهم جنوا جنانية لا تغتفر، الفايروس عبث بالحياة كلها، ولم يبقَ مفصل من مفاصلها لم يؤثر فيه، السياحة التي كانت ناجحة في أوربا أصابها الكساد، ولكن أوربا قد تخاطر بالأرواح على أن تخاطر بالخسائر الكبيرة في رؤوس الأموال، المال هو الذي يوفر لك الحياة وكل شيء، هكذا هو المفهوم السائد هناك.

رجعت بذكريتي إلى الوراء، أني سمعت من صديقي مسؤول المرضين أن كثيراً من المنتسبات قد تم تسيبهن، حاولت أن أسأله عن اسمها لكنه بادرنى أنها احتياط، إذا أصيبت واحدة فهي ستلتحق في مستشفى الأمل مباشرة، صرْتُ دونياً، إذ تمنيت أن تكون إحدى المنتسبات مصابة ليزداد يقيني بأنها هي، لا أعرف ما بي إلا أني لست بشخصٍ سويّ، تساءلت في سري أيعقل أن تكون خديجة قد تحولت إلى ممرضة! ربما لأنها تحب خدمة المرضى تراها نذرت نفسها لمساعدة الكادر التمريضي نتيجة كثرة الاصابات بينهم، وهي لها معرفة واسعة بالعلاجات وسمعت مؤخراً أنها صارت تعمل في صيدلية، أخرجت هاتفني وأوهمت الجميع بأني أكلم شخصاً ما، صحت ألووو أهلاً عمتي أم خديجة..

ترفع رأسها وتدير بجسدها إليّ، وضعت الموبايل من يديّ وصرْتُ أهدقُ فيها أكثر، النظراتُ لم تنقطع بيننا من لحظتها، كان لديها خمسة من المرضى يجب أن تعطي العلاج لهم، عند كلِّ مريضٍ تنظر لي، لم أرفع عيني عنها أبداً، تابعت حركاتها بكلِّ تفاصيلٍ، الأمل قد يأتي دون سابق موعدٍ ويعطي لك جرعة من التفاؤل، البشرُ يتطلعونَ إلى الأملِ عسى أن يزيل السوداوية التي تخيم على أعينهم، يا الله أن تكونَ هي ، طلبت من الله ألا يخيب رجائي، اشتقت لها، هكذا نطق قلبي من بين أضلعي، أجبته بكلِّ حرقةٍ: نعم، اشتقت لها كثيراً.

العالم عبارة عن تجارةٍ، منذ القدم وكانت التجارة هي التي تُحرك البشرية وتزيد من نمو وتطور الناس، الثَّجَارُ هم الذين يتحكمون في اقتصاد العالم أكثر من الأنظمة، أن تكونَ رجلَ أعمالٍ ناجحٍ فهذا يستدعي منك أن تنظر بإيجابيةٍ إلى ما يحدث أمامك، لتفهم كيفية أن تستثمرَ الفرصة لصالحك، الخيارات كثيرةٌ إلاّ إن الأفضل نادراً فيما بينها، هيفاء ومرضى تزوجا قبل ثلاثة أشهرٍ، وقررا أن تكونَ بيروت هي مقر إقامتهم، اتخذ مرضى من بيته في شارع الحمرا سكناً له، بينما وليد ملّ الحياة في بيروت فاتخذ من جونية مقراً دائماً له، لما تتمتع به جونية من جوٍّ رائعٍ خلّاب يملأ النفس متعة وبهجة، صارَ وليد يدخل متى شاء بأيّ وقتٍ يشاء إلى العراق، التجارة مستمرة ولن تبور بأيّ ظرفٍ من الظروف، إن كساد التجارة يعني كساد العالم وموتهم، المال موجودٌ لكن كيف لك أن تجعلَ منه قوةً نفعية، هنا تكمن عظمة رجالات الاعمال بأنهم يعرفون قيمة المال ويقدرّون قيمتها، يقول مرضى أنّك لو ملكت أموال الدنيا برمتها فإنّك معرضٌ لتخسرها جميعاً في لحظةٍ، لكنّ عليك أن تبقى يقظاً على الدوام حتى تستطيع أن تحافظَ عليها، هذه الكلمة لم أنس كيف كانت مناسبتها، إذ كنا في بيت أحد رجالات الاعمال البارزين ومصدري الأدوية من أوروبا إلى الدول العربية، كان الاجتماع يضم كثيراً من الشخصيات السياسية العربية والعراقية والاوربية، كان الساسة

ورجال الدولة الكبار يقفون كالأقزام أمام رجال الأعمال كمستر دايفيد ورامسوا وتوفيق طارق وحسام أبو العلا وعليّ رامز، هؤلاء كانوا أكثر منعة وأقوى شخصية ونفوذاً من رؤساء الدول، حضرت وجبة العشاء التي أقامها مستر رامسوا التاجر الاسباني الذي كان يتجأ في الادوية، إنه يملك أفضل شركة أدوية في العالم، تتعامل مع أكثر من ثلاث وثلاثين دولة، حتى نقاشهم وكلامهم كان مختلفاً، هم يعيشون بوادٍ ونحن نعيش بوادٍ آخر، مرتضى صاحب اليد البيضاء عليّ لأنه أدخلني مع هؤلاء الأغنياء، كيف لي أن أستغلّ الفرصة لأصل إلى عشرٍ معشارٍ مما وصلوا إليه؟ من أين أبدأ؟ وماذا أعمل؟ وبأيّ شيءٍ سأنجح؟ الأسئلة كثيرة، وخيبات الظن أكثر وضعف التفكير كان مسيطراً عليّ، الأغنياء يختلفون حتى في طريقة تفكيرهم، كلامهم يختلف عن كلامنا، لغتنا تختلف عن لغتنا، طريقة تناولهم الأكل تختلف عن طريقتنا، إنهم طرازٌ خاص ، كانت الجلسة عبارة عن تبادل تجاري رفيع المستوى، السياسيون الحاضرون كانوا لا يتكلمون أبداً إلا بكلمات، نعم، بسيطة، سأتكفل بهذا، أتركوا الأمر عليّ... الصفقات كانت تجرى بين هذا وذاك، وبين ذاك وهذا، يقضون مشاريعهم بكلّ سهولة ويُسرو.

مرتضى وهيفاء يعملان بجدٍ وتفانٍ، إنّ زواجهما لم يكن حُباً خالصاً، بل كان حب لتشابه الأفكار والرؤى، ولعلّ هذا افضل أنواع الزواج، الزواج طوقٌ بين اثنين لا يجب أن يختلفان أو يتنافران فيما بينهما مطلقاً، من لم يجد

في شركه طوقاً جاذباً فالانفصال هو الأفضل، ولكن ستصاب العوائل بتفككٍ كبير إن أصبح هذا شائعاً.

هيفاء تملك مهارة في كيفية التعامل مع الأشخاص المهمين، حتى إني كنت متعجباً كيف لمرتضى وهو الرجل النجفي أن يقبل بزوجة كهيفاء! هي متطلعة وتتوق لبلوغ أرقى المراتب، كانت دائبة في عملها، وقد قدمت الكثير لتصل إلى مرامها، بحث الماجستير الذي كانت تبحثه في القرى والأرياف قد كنت أظنه قد كلفها الكثير من الأشياء الخاصة إلا إنها كانت امرأة من طراز خاص، كانت تأخذ العينات وتجمعها وأنا منشغلٌ بجسدها، كأنها لا تملك أيَّ شهوة إلا شهوة المال والمنزلة، ربما تكون حالة أهلها المادية هي السبب في ذلك، إذ كان أبوها بواباً في المستشفى وأخوتها الباقين يعملون عمالاً لدفع عربات الحمولة في سوق النجف للمواد الغذائية، هي الوحيدة التي وصلت إلى الكلية والتي أصرت أن تأخذ شهادة الماجستير والدكتوراه لتعوض ما عانت منه طوال حياتها، الفقيرُ عاملٌ كبير في خلق الطموح والابداع، الجوع هو الذي يكون محفزاً لنيل أصعب الغايات وأعقدها، كانت تسمح لي بأن ألمس جسدها وأمرر يدي على صدرها، وفي بعض اللحظات كنت أخذ قبلةً من شفيتها، على حين فورة من الشهوة أردت أن أنزع ملابسها وأدعوها لنفسي لكنها أيقظتني من حالة السكر التي أصابني وذلك بأنها قالت: حتى

يتم فصلك من الوظيفة لآخذَ مكانك ولكن أُنّي يكون هذا وأنا شريكك في الرذيلة؟

الصباحاتُ المشرقةُ تأتي إلى المرءِ كأنها طيفٌ عابرٌ، الصباحاتُ الكثيبةُ تكون هي السائدة، بدأت هيفاء ومرتضى يُخَطِّطون أن يكونوا شركاء مع وليد بمشروعٍ يتفوقون عليه، التجارةُ تحتاجُ إلى أفرعٍ شتى حتى تهيمن على السوق، لا بدّ أن نسيطرَ على الأسواق في النجفِ والجنوب، إن أغلبَ مُدن الجنوب العراقيّ تفتقرُ لمثلِ هذه المراكز، إن المرأةَ الجنوبية لا بدّ أن تُبصرَ العالم وتنتبه إلى محاسن الجمال، جمالُ الجُنوبيات بهذا الملحّ الذي حُلِقنَ منه، كأنّ الملحَ مادةٌ حَلَّقهنَ ونشأتهن.

الأقنعةُ تتجدد، سواءً بأقنعةٍ جديدة أم بنسخِ نفسها وتبديل جلودها، الحالةُ بدأت لا تسر ولا تطمئن، الوضعُ آخذٌ مسيره نحو الانهيار التنظيمي، التظاهرات التي انطلقت منذ إكتوبر ٢٠١٩ قد خلّفت وراءها زخمة من المشاكل التي بقيت عالقة دون الوصول إلى نتيجة تُرضي الجميع، خرجتُ أتلدد كمن نفرَ من الحياة بكلِّ ما فيها، صرْتُ أمشي من بيتنا حتى وصلت أطراف شارع المدينة القديمة، لي ذكرياتٌ مع هذا المكان، أريدُ أن أهرب من عالمٍ لم أعد أطيقه أو يُطيقني، الهروبُ من الضياعِ إلى الى الظلام المدلهم، حقيقةً صرْتُ لا أستطيع العيش والحياة بهذا التردّي، ماذا أأملُ من رجالٍ لا

يعرفون إدارة صفٍ مدرسي مكون من عشرة طلاب فكيف بإدارة بلدٍ بحجم العراق ومشاكله!

بدأت أشعر بأن هذه الممرضة كثيراً ما تعودني، صارت تهتم بي أكثر، إنها أصبحت تأتي إليّ كل ساعةٍ، لا أكاد ألتفت إلى ورأيتها داخله علينا، بحجةٍ أو بغير حجة، إنها تدخلُ لتكلمني عن حالتي وتتابع نسبة الاوكسجين، أخذت تشجعني كثيراً أن أصمد وأقوى وأكون شجاعاً، المرض هو فايروس ضعيف وجبان ومخنث، أنت رجلٌ ولا بدّ لك أن تهزم هذا الكائن الغريب، الكلماتُ تركت في نفسي أعظم الأثر، في اليوم التالي أقبلت إليّ في أول الصباح، لا أكاد أبصر منها شيء إلا عينان واسعتان، حُطت بكُحلٍ خفيف يبين سعة العين، الممرضةُ صارت تعطيني اهتماماً واضحاً حتى عرف المرضى الراقدون معي إنها تخصني دونهم، كانوا يتغامزون كلّما أقبلت إليّ، أتمنى أن أسألها عن نفسها لكنني أخشى أن أسبب إحراجاً لها، المراتُ التي عادتني فيها كثيرة، لا بدّ لي أن أعرفها، بدت حاسة الفضول تزداد عندي، عزمت على أن أجازفَ وأقتحم، المواجهةُ أفضل من الدفاع، حتى في حالات الحُب المنتصر هو الذي يُبادر وينقض على من يجب كانقضاض الفريسة، لكن شتان بين هذا وذاك.

كبريقي خاطفٍ، مرّت عليّ كما يمر الطيف الجميل، صرْتُ لا أنام الليل،
منتظراً قدوم فاتنةٍ تنثر أريجها عليّ ليخترقَ رثائي ليطرد فايروس كورونا الذي
استقر في رثائي وأخذ يصارعهما، يومين متتاليين، وعند كلّ رأس ساعة،
تقبلُ إليّ تارةً تطمئنني وأخرى تسأل إن كنت في حاجةٍ ما، وتارةً ترمقني
بنظراتٍ بريئةٍ تحرك الساكن من مشاعري وتمضي إلى حيث أقبلت لتعود مرة
أخرى، الفضولُ أخذ يلح عليّ، لم كل هذا الاهتمام بي حصراً، التفسيرُ
واضحٌ أمّا قد أعجبت بي ولا ضيرَ في أن تعشق الممرضة المريض الذي تعطيه
العلاج، وطنت نفسي أن أخرج إلى خارج ردهة العزل، مللتُ رائحة الردهة
الكريهة، الناسُ الذين كنت معهم في هذه الردهة غير نظيفين، المرافقونُ
للمرضى ملأوا الردهة بالقاذورات والاوساخ، العلاجُ مع الأكل والعصائر
يوضع في سلة قمامة واحدة، كرهتُ البقاء مع هؤلاء، الاوكسجين ما زال
يتراوح بين السبعين والثمانين، خرجت أستنشق الهواء الطبيعي، كانت
مستشفى الأمل مفتوحة للهواء من جميع الاتجاهات، فهي تتوسط محافظتي
النجف وكربلاء، ولا توجد بالقرب منها مصانع أو بيوت، حُصصت للعزل،
وربما أحسنت الدولة في هذا القرار، أخذت أمشي في باحة المستشفى،
وحيداً، كاسف البال، نحياً، خائر القوى، بالكاد أتنفس، أحملُ هموم الكون
على رأسي، صرت أفكر بأشياءٍ حدثت وستحدث، تذكرت صديقي
مرتضى ووليد، مرتضى أحد اللذين لعب الحظ لعبته معه، مرتضى رأى نفسه

لا يستطيع أن يحقق ما يطمح به، أخذ يجد ويتحين الفرص حتى وصل إلى ما وصل إليه، وأصبح اسماً لامعاً، معروفاً لدى الخاص والعام ومن كبار رجالات الاعمال والسياسة.

المولاتُ عبارةٌ عن تسويقٍ وتصريفٍ، العراقُ أصبحَ أو أُريدَ له أن يكون من المجتمعات المستهلكة لا المنتجة، التبادلُ التجاري كان يجري على قدمٍ وساقٍ وبصورةٍ مستمرة بين القوى التجارية، العراق لا يعد إلا أرضاً خصبةً لابتلاع كلِّ جديد، التساؤلات التي كانت تأخذني هو كيفية أن أضعَ لِنفسي مكانة بين هؤلاء؟ أريد أن أرتفع لأصل إليهم، علاقاتي واسعة، ومعارفي كثر، لكنني حتى هذه اللحظة لم أنتفع من أحدهم، لا رؤيةً لأولئك الحاكمين، إنّ الحياة قاسيةٌ وفي طريقها إلى التعقيد والصعوبة، سيصبح العيش عسيراً، التقنيات وجدت واستغلت، إن مظاهر الرقي والتطور ستأتي بالوبالِ على الفقراء وستجعل أيامهم كلها أو أغلبها نكدًا.

صرتُ أتجولُ في باحةٍ مستشفى الأمل، الساعةُ تشيرُ إلى الرابعةِ فجراً، الهدوءُ والسكينةُ هما السائدان فيما حوِلي، جلستُ على الرصيفِ، أرمقُ الأرضَ متفكراً، متأملاً، طامحاً، حاملاً، فإذا بي أحسُّ كأنَّ أحداً ينظرُ إليّ، من خلفِ شُباكِ غرفةِ الممرضات تنظرُ لي إحداهن، أحاولُ أن أتجاهلَ بقصدٍ أن أجعلها تتبني، تقربُ حتى صرتُ قريباً من الغرفة، ما زالت تنظرُ لي بنظراتٍ

تثيرني، أصبحتُ مُحاذياً للشباك، ما زالت واقفة تنظر إليّ، بقينا للحظةٍ صامتين، ابتسمت لها ورفعت يدي للتحية، فردت عليّ بأن رفعت كفها ورأيت أن العيونَ ابتسمت أيضاً، استأذنت منها أن أدخلَ إلى ردهتي، لكنها أشارت بأن أنتظر بمكاني، لحظة أو بعضها حتى خرجت إليّ، وقفت قبالي بصمتٍ كاد أن يفضح إعجابي، هي لطيفة، ومساعدة، ودؤوبة في العمل، عرفتها بأني منتسبٌ أيضاً في الصحة، وأنا مختبري، وأعطيتها اسم الشعبة التي أعملها بها وهي سحب الدم، قالت: نعم، رأيتك كثيراً، تعجبت من ردها، أيعني أنكِ معي في المستشفى نفسه؟

- نعم، وأعرفك كثيراً وأعرف عنك الكثير
- كيف هذا، هل من الممكن أن تعرفيني بنفسك؟
- هكذا نسيت حتى صوتي بهذه السهولة!
- حيرني هذا الرد، لم أنسَ ولكن صوتك يخرج من وراء كمامتين وقناعٍ
- هذا ليس عذراً يا سيف
- صمتٌ، ترقبٌ، حتى أطلقتها، أتكوني أنتِ!
- أوهل في قلبك غيري!
- أبدأً، لكني ذاهلٌ من الفرصة التي جمعتنا
- لا تذهل، الدنيا صغيرة وبحجم جناح بعوضةٍ، ها نحن نلتقي من جديدٍ بعد غيابٍ طويل

- خديجة !
- نَعَمْ
- ما زلت حتى الساعة ... وصمتُ ..
- ماذا؟
- أحبك وبأكثر من ذي قبل !
- تحولتِ إلى ممرضة؟ ألم تحبي أن تكوني مخبرية ناجحة في ذات يوم؟
- أنها مساعدة للصدقات، وبذات الوقت خدمة انسانية نذرت نفسها لها

العذاباتُ التي يعيشها العاشقونَ كثيرة، لا مهربَ لهم للتخفيف عما يكابدونه من عذاب الحب إلا أن يكونوا حاملين، الخُلمُ يُصيرُ لك الحياة كيفما تشتهي وحسبما تريد، لنلجأ إلى الخُلمِ إذن، الهروبُ لمجهولٍ هوَ أصعب هروب، رائحة ردهتي كريهة ولا تُطاق، رائحة الثوم والبصل والأطعمة المرمية أسفل الأسرة تثير روائح كريهة، إن الناسَ البسطاء الذين أصيبوا بهذا الوباء سمعوا أن الثوم والبصل وغيرها يزيد من مناعتهم ويساعد على شفائهم بسرعة من فايروس كورونا، فأخذوا يأكلون الثوم والبصل بنهم كأنما يأكلون قطعة سكر، بالكادِ أحمل ولا حيلةَ لي غيرها، بدأت أشعر بأني في حالةٍ جيدة، الاكسجين بدأت تصل نسبته ٨٥% ، لا أريد أن أبقى أكثر، أريد أن أخرجَ بسرعة، مللت هذه المشاهد اليومية التي أراها، الفقراء تعذبوا كثيراً

في هذا الوباء، إن المرافقين تعبوا وأصيبوا بحالات من الاغماء نتيجة لعدم نومهم لمدة يومين أو ثلاثة، فقد ضرب الكثير من المرافقين أروع الأمثلة في الإيثار، ما زالت الدنيا بخير إذن، وما زالت الحياة تضم المحبة.

الولائمُ التي حضرتها مع وليد كانت كثيرة، عامرة، فاخرة و لها دلالاتٌ كبيرة، يتمُّ بها عقد الكثير من الصفقاتِ، وليد رجل صامت لا يكثر من الكلام، ليس كمرتضى بل هو أنجح وأوسع بالعلاقات، حيرني كيف استطاع أن يقفزَ كلَّ هذا القفز والارتقاء لما وصل إليه، الحلُّ والعقد له قدرة على التحكم بهما، دخلنا أنا ووليد في بيتٍ مسؤولٍ رفيع في الدولة، جلسنا صامتين كعادتنا، الرجلُ حالما رآنا أخذ يكثر من الهذر والكلام الذي لا يمت بصلةٍ إلى ما نحن قادمون من أجله، الاستهلاكُ وتوزيع المنتج المستورد هو الفكرة التي تأخذ حيزاً كبيراً من كل اللقاءات.

ليست كلِّ علاقات الحب يجب أن تنتهي بزواج، فكثيراً من علاقات العشق يجب أن تنتهي بالفراق فهو خيراً من ارتباط صادم باسم الحب، بقيت أتحين الفرص لأصل إلى غرفة الممرضات، أقبل اليوم الثالث وإذ بي أراها أيضاً، أهي متطوعة هنا أم مجبرة؟ تساءلت كثيراً عنها، كيف لها أن تعمل على مدار الساعة لمدة ثلاثة أيام متوالية، دعوتها أن نجلس معاً، لبت الدعوة فوراً، بقينا صامتين، منتظرين أن يُفتح الكلام، طلبت منها أن تعرفني بنفسها، رفعت الكمامتين عن وجهها، وإذ بي أبصرها خديجة.

الدوامات التي يمرُّ بها المرء كثيرة، فشلت عاطفياً بعد فشل رجوعي إلى خديجة، أخبرتها بأني نادماً فقبلت ولما طلبت الرجوع إلى بعضنا البعض أبت وشددت بالإباء، المستقبل فتح ذراعيه لها، هي الآن طالبة في الدراسات العليا، وبذات الوقت تعمل في المستشفى وراتبه جارٍ، المزيد من الخيبات والفشل تجعل المرء يستسلم لقدره وللحياة أيضاً، سأهرب من قدري إلى قدرٍ آخر عسى أن أعيد ما ذهب مني وما خسرتَه كلِّ هذه السنين الماضية.

تقبل هيفاء مع مرتضى إلى العراق بزيارة مفاجئة، أخبرني وليد بأنه سيلتقي بهم في مطعم بوابة النجف، كان الموعد في الساعة الثامنة مساءً، كنتُ أنا الصديق الأقل حظاً بينهم، لم أنس إني أنا الذي عرفت هيفاء بمرتضى لتصل

إلى ما لم تحلم به قط، كانوا يتكلمون عن المشاريع، هذا يريد علاقات هذا وذاك يريد علاقات هذا، أنا لم أكن إلا مجرد صديق يعتزون بذكرياتهم معه، اللقاء جعلني أذهل مما أسمع من أرقام وأموال لا تعد ولا يسيطر عليها.

كان خروجي من مستشفى الأمل بعد أن قضيت فيها خمسة أيام خروجاً مشوباً بالتوجس، كنت أريد أن أحظى بلقاءٍ مع هذين الصديقين ليوفرا لي الفرصة الثانية لأخرج من العراق، الدرجة الوظيفية لم تكن سقف أحلامي وطموحاتي، كنت أريدها نقطة أنطلق منها لما أحب وأرغب، العقل الاقتصادي الذي كنت أفكر به كان مقيداً وقلقاً، الحكومات جعلت منا لا نطمئن لمستقبلٍ إلا تحت خيمتها، الراتب مضمون، إذن الحياة مضمونة ولا قلقٌ عليها ولا هم يجزون، كانت علاقاتهم واسعة جداً على مستوى عالٍ كالوزراء والنواب والقادة الكبار في الدولة، أن تكونَ تاجراً قوياً فإنك تحتاج إلى كثيرٍ من الاصدقاء السياسيين، ولا بدَّ أن تنال ودهم وتأخذ دعمهم المؤقت والدائم، نظرات هيفاء كانت مثيرة، إلا إن لا أحد يصل به تفكيره إلى غايةٍ بعيدة، أثناء تناولنا الطعام أخذتني الذكريات بعيداً، إلى الأيام التي قضيتها في المركز الصحي، كانت ماهرة بالإغراء حتى الفتنة، من أوّل يوم لها وهي تبحث عن عيناتٍ للمرضى وهي ترنو إلى غايةٍ بعيدة، المختبر كانت به غرفة صغيرة، بهذه الغرفة كانت علاقتي بها تأخذ منحىً آخر، يوم شبكت جسدها بذراعي وأخذت أمرر يدي أعلى وأسفل عضويها المثيرين، كانت

فاتنة، لم أتمالك نفسي يومها، حتى سقطت في بحر الرذيلة وأخذت أدخل الخشبة في مكانٍ وجده رطباً من شدة ما بذلته من إثارة.

التظاهرات الشعبية التي انطلقت في بعض مدن العراق، كانت مشتعلة وتفور حماساً، الشبابُ عقدوا أملاً كبيراً بأنّ التغيير قادمٌ وقريباً جداً يكاد يلامس أكفهم، تظاهراتٌ تشرين أو أكتوبر عام ٢٠١٩ تمثلُ بدايةً لمرحلةٍ سياسيةٍ جديدة، إذ إن سنوات الخوف والقمع ولّت إلى غير رجعة، لا خوف ولا قلق ولا شيء من قبيل ذلك، الشبابُ اليوم بحرٌّ غاضبٌ غمرت أمواجه وجه البلاد كما يعبر أحد الشعراء، يدخلُ صديقي وجاري كريم التظاهرات بقلبٍ مفعمٍ بالحوية والقوة، كريم شارك بالتظاهرات منذ لحظة انطلاقتها الأولى، كان يعملُ منشورات ويقوم بتكبيرها على لافتات ويقوم بإنشادها على جمعٍ كبيرٍ من متظاهري النجف، الهتافاتُ نافرّةٌ ناقمةٌ غاضبةٌ على كلّ ما يمتُّ بصلّةٍ إلى الدولة برمتها وليس الحكومة فحسب، النظامُ الذي حكم منذ ٢٠٠٣ حتى ٢٠١٩ أصبح مرفوضاً من غالبية الشعب الذي لا يملك حولاً أو قوة أمام السلطة، المدججة بالموت، لا يوجد نظام ديمقراطي في الكون كله، فإذا أردت أن تعرف ذلك عليك بأن تعارضه في رأيه في إدارة البلد أو طالبه بالتنحي عن كرسي الحكم، سينقلب عليك إلى شيطانٍ ماردٍ، الأنظمة التي حكمت هي نظم تمثل نفسها وتمثل الطرف الذي حكمت فيه، كريم كان يحضر بصورة يومية إلى ساحة الاعتصام، يعملُ في شركةٍ سفرٍ وسياحة

في شارع الروان، حالما ينتهي من عمله، يذهب إلى ساحة الاعتصام ليقبى حتى صباح اليوم التالي ليذهب إلى العمل، المخاضُ العسير يأتي ربما نتيجة تراكمات من الاوجاع التي تكدست فأصبح من الصعب زوالها، الحضورُ اليومي اللافت، والحماس الواضح، والذوبان في القضية أثارا في نفوس المراقبين من المحبين والكارهين له، كأنه آلة صماء لا يشتكي تعباً أو ألمّ ماء، روح الشبان حماسية انفعالية عاطفية، وأغلب ردود أفعالهم هي عاطفية، الناشطُ كريم أصبح شخصية مهمة بين المتظاهرين، بدأ الكثيرون يتقربون إليه، ربما معجبين وربما لغاياتٍ في نفوسهم، الساحةُ كانت عبارة عن متنفس للشباب الذين لا عملَ لهم، يجدون الصحب والخلان ويقضون وقتاً جميلاً بمزاح وعبث ومرح، المدارسُ عطلت، الدوائر عطلت، الكثير من مفاصل الحياة أصيبت بالشلل، الموظفون أصبحوا يعملون ربع ما كانوا يعملونه قبل التظاهرات، الخطوط العريضة أصبحت ملونة وواضحة ولم تعد خافية على أحدٍ، ينشأ كريم صفحة على الفيس بوك ممولّة، ويقوم بنشر مقالات صغيرة من خمسة أو أربعة أسطر في كل ساعة أو ساعتين، المقالات التي ينشرها كانت تأخذ مأخذ العنف والروح الشريرة في داخل ساحات التظاهر، التعليقات والردود كانت كثيرة.

ذهبتُ إلى المستشفى كعادتي، أخرج من البيت قبل رفع بصمة الحضور بساعة كاملة، لأني أذهب في سيارات الكيا، وأحتاج أن أركب لمرتين حتى

أصل إلى مكان عملي، الطرق مزدحمة، والسيارات أصبحت في عقدة، حركات السير أصبحت غير منتظمة، فجأة يقف طابور السيارات، تقف مئات السيارات الذاهبة إلى مكان عملها، ربما القطع يكون بسبب حادث بين سيارتين، أو ربما إن شركة المرور قامت بغلق الشارع، كان هذا اليوم معروفاً ومُعَدَّاً له من قبل، إذ اتفق المتظاهرون على غلق الطرق لشل حركة الموظفين ليخرجوا مع المتظاهرين ليؤثروا على الدولة ويجبروها على تلبية طلبات ساحات التظاهر.

الحياة سجنٌ كبير، البشر في دواماتٍ من القلق يعيشون، قلقٌ من كلِّ ما في الحياة، القلق الذي يصيب النفس يؤثر فيها ويجعلها عرضةً لأمراضٍ كثيرة ومزمنة، العمل الذي يعملهُ الأغنياء إنهم يجازفون ولا يخشون، كثيراً من الأغنياء وصلوا إلى ما وصلوا إليه بضربة حظ ناجحة، المقادير لها ظروفٌ خاصة تتصرفُ تحت ظلها، نفسي غارقةٌ في بحرٍ من الامواج المضطربة، لا سبيلَ لنجاتي مما أعاني إلا أن أسعى وراء الطيف الذي يحيط بي، هذان هما وسيلتي لبلوغ إربي ولكني عاجزٌ أمامهما خشيةً ورهبةً من ذلِّ يلاحقني، أخبرتُ مسؤول الخفراء أن يبقى اسمي ضمن قائمة الخفراء في طوارئ الباطنية، المرضى بحاجة ماسةً إلى أمثالي، الراحة التي وجدتها بين هؤلاء المرضى لم أجده في أيِّ وجهٍ من الوجوه التي ملكت أموال وسلطة فرعون! التضحيات التي يقدمها الناس بعضهم لبعض هي التي ستُخلد في سجل

الإنسانية الذي لا يخفي منقبةً إلا وذكرها وشجعَ عليها، لجأت إلى طوارئ الباطنية وتركت مرتضى لهيفاء ووليد لمشروعه ومستر دايفييد لمشاريعه التي ينافس عليها شركاتٍ عالمية بسباقٍ غير نزيه، وتركت الدنيا وراء ظهري لأريح هذه النفس مما كابدهت وعانته، الحيرةُ تأخذني كلَّ مأخذٍ والتلاشي في اللاشيء يسلبني لذيد أيامي، ستكون الأزمة هي بوابةٌ لقحطٍ سيأتي وشيكاً عقبى لأزماتٍ متراكمةٍ، أن تتراكمَ عليك الأزمات فإنها ستعذبك بك أعظم العذب لتأخذ منك الصفاء والسلامة عنوةً، أنا حائرٌ أسيرٌ في دروبٍ موحشةٍ لا أصدقاءً لديّ أجدُ سلوةً لقتل هذا الفضاء الداخلي الذي صار يقلقني أكثر، ماذا عسى المرء يفعل ويُد القدر فوقه توجهه أينما شاءت كأنه لا حول له ولا قوة، المرضُ موتٌ، والموتُ مرضٌ، متلازمتان لا تنفصلان عن بعضهما البعض، الخياراتُ صعبةٌ، الظروفُ لم تعد تلك الظروف التي لها سُبُل كثيرة من الحلول، بل أصبحت الأزمة تجلب معها عشرات من العثرات التي تجعل الطريق وعراً شائكاً.

الساعاتُ التي قضيتها من أيامي مع الوهم كبيرة، أريد أن أنشغلَ بما يدُر لي خيراً ونفعاً، الإيمانُ خيرٌ من تيهٍ لا يحمُدُ عقباه بحجةٍ أو أخرى، الفناءُ سيكون للجميع ولكن فرقٌ بين أن تعيش مطمئناً وبين أن تكونَ مضطرباً في حياةٍ أيامها معدودات، الماضونُ في الطريق لا بدّ أن يصلوا أو يعيروا بوصلةٍ مسيرهم نحو غايةٍ أخرى، المهمُّ أني أدركت وتعلمتُ أن من سلوك الطريق

خيرٌ من الركون إلى الكسلِ الذي يعتري النفوس الضعيفة أو المهزوزة، هؤلاء الناقمونَ علينا لقمة الخبز لا بدّ أن ينالوا صفةً من الربِّ، الفقراءُ فقراءٌ في كلِّ شيءٍ، الأغنياءُ أغنياءٌ في قليلٍ من الأشياء، الأسماءُ التي عايشتها كلها كاذبة، كلها تسعى وراء مصالحها، فهمت الدرسَ جيداً، لم أعد ألومَ الناس، الذين يلومونَ الدنيا ويشتمونها هم بشرٌ خاب سعيُّهم ففشلوا في أن يصلوا إلى ما يبتغونَ إليه الوسيلة، لجأوا إلى تبرير خيبتهم بكلماتٍ تدم الحياة، وتزدري من كل الناس، وصل الحالُ بكثيرٍ من الناس أن تركوا الله الذي في صدورهم ليركضوا وراء السراب عسى أن يلونَ لهم تعاسة الحياة بألوانٍ براقه زاهية تسرُّ الناظرين، سأقدمُ على الماجستير في السنة القادمة، وسأوفّر لي أقساط السنة الأولى من الآن، واثقٌ أنا أني لن أحصلَ على مقعدٍ دراسيٍّ إلا في جامعةٍ دولية، لتكن الهند هي جهتي لأجلب الماجستير في التحليلات المرضية، الشهادةُ أصبحت سهلة بسيطة ولا تكلف إلا الدولار، أحتاجُ الدولار إذن ليس غيره! بالمالِ تستطيع أن تحصلَ على كلِّ شيءٍ، بأيِّ وقتٍ تشاء، الصدفةُ قد تلعب دورها في رسم مسار حياة الإنسان إلا إنها ليست على الدوام، تركت مرتضى ووليد، وتركت صحبتهما وفارقتهما إلى الأبد، قرارٌ لا رجعة فيه، هؤلاء نتيجة لحالةٍ من الحيات المتراكمة التي جلبها القدر للعراق على يد سياسيِّ الصدفة اللعينة، تذكرت قولاً للشاعرِ نزار قباني حينما قال في قصيدته بلقيس:

سأقول في التحقيق:

إنَّ اللصَّ أصبحَ يرتدي ثوبَ المقاتل

وأقول في التحقيق:

إنَّ القائدَ الموهوبَ أصبحَ كالمقاول..

كأنَّ نزار كان يتنبأ بما سيحصل للعراق بعد عام ٢٠٠٣، القيمُ الدخيلة كانت لا تعد ولا تحصى، أصبح الناسُ يأتون بقيمٍ لم يألفها الخلق العراقيُّ من قبل، وماذا بقي في العراق إذن! البطونُ التي جاعت وشبعت لنحدرها فهي بطون خبيثة مسمومة، إنها خبرت الجوع وصارت تخشاه فستبقى تفعل كل الافعال الرذيلة لتبقي نفسها لئلا يدور الزمن دورته التي لا تبقى ولا تذر، الله تارة يعطي من أوسع الأبواب، وتارة أخرى يقتدر ويغلق كل الأبواب، حقاً، لا أفهم حكمته، فهو لديه حكمٌ لا يعلمها إلا هو وبعض من الذين اصطفاهم، حياتي أصبحت مملة كثيراً، ولا أعرف منها إلا بقايا روتين خانق، اتصلتُ بصديقي أحمد الذي يسكن الديوانية، أخبرته بأني مشتاق لأيامنا السالفة التي كنا نأخذ بها أدوات الصيد ونمضي إلى أماكنٍ نائيةٍ في ريفِ محافظة الديوانية، طبيعتي تميلُ إلى الطبيعةِ الأولى، حيث الحياة الأولى الهادئة، البسيطة، التي لا تعرف إلا ما يقع أمام عينها، رحبَ بي بشوقٍ وهلفةٍ، ذهبت مباشرةً وحالما تعانقنا بعناقٍ حميم، طلبت منه أن نتجه من الفور إلى

أقدم منطقة ريفية، مضيئنا نشق الطريق إلى أبعد منطقة، نزلنا على مجرى من الماء، تركته وصرثُ أتمشى على الماء، صديقي يعرفُ أني لا أعرف السباحة، تفاجأت منه، تركني أمضي إلى عمق الماء دون أن يمسه بي، دون أن ينبهني، أخذت أغوص في هذا المكان الذي كنا نغرق عن جرفه، وصلتُ إلى منتصف عمق النهر فلم يتجاوز ارتفاعه حتى خصري، نظرت له ليفسر لي أين ذهب الماء؟

الماء سيذهب من أرضٍ لا تعرف أن تحافظَ عليه، الماء لديه إحساسٌ كبير، وكيف يكون للماءٍ إحساسٌ ولا يعرف ماذا يكون هو؟ أنسيت إنَّ الحياة خلقت منه، كل شيء خرج منه فكيف لا يكون شاعراً بالناس، كثيراً ما كان يغضب علينا هذا النهر، كأنه يعطينا إشارات عسى أن نتعظ ونحذر غضبه وبطشه، لم يعد الغرق وسيلةً نافعة معنا، اقتنع الماء بأن يغادر أرضنا إلى غير رجعة، أخذتُ أتبع جريانه وأسايره عسى أن أصل إلى رأسه، لأتوسله أن لا يذهب عنا، ولا يتركنا عرضة للموت، صرثُ أركض وصديقي يركض خلفي، وبقينا نركض في الماء عسى أن يرتفع منسوبه، صرثُ أركض بسرعة أكثر وأنا تحت الماء، صديقي أخذ يلح عليّ بأن أتوقف.

مهما بلغ المرء من علوٍ سيبقى يحتاج الحياة الأولى، أنا تركتُ أهلي وتغربت عنهم غربة روحية وجسدية، لم يعرفوا أن لهم ابناً حتى، كانوا يسألوني حتى لا

يثيروا غضبي، لم أنس أمي وهي تتوسل الله أن يريح قلبي ويسعدني في كل حياتي، دعاؤها كان المظلة التي تضللتني وتحميني، أن دعاء أمي كان السور الذي أحاط بي كل هذه السنين، أشد ما تفرح به أمي هو أن ترى حياتي قد استقرت واستقامت بصورة طبيعية، أبي يشعر بحبيبة كبيرة مما فعلته بنفسي، إنهم لم يدخلوا إلى ذاتي، أنا غارقٌ، ضائعٌ حتى التلاشي، لولا بقية في عقلي لكنت في أسفل دركٍ من التشتت.

الماء غضب علينا، يريد أن يرحلَ بغضبٍ هستيري، كأنه يقول بما إنكم لم تعرفوا قيمتي لأذهب عنكم، سايرتُ النهر وأنا أهتُ أريد أوقفه، أعياني الركض، صديقي تعب وبُعد عني، صارت المسافة شاسعة، بقيتُ وحيداً، قدماي تعبنا، جسمي أصابه الإعياء، أنفاسي مضطربة، دقات قلبي غير منتظمة، جلستُ على حافةِ النهر، أحاولُ أن أستعيدَ أنفاسي المضطربة، ولكن النهر ما زال يمشي إلى هناك محملاً ببقايا قاذورات ننتة وأكياس المزابل والأحجار التي غيرت كثيراً من لونه، تغير لونه كثيراً إلا إن طعمه ما زال عذباً وريّان، عدتُ أدراجي أسير في دربٍ أعرفه بملامحه فقط، كأني لم أزر الديوانية في حياتي كلها، وأنا الذي كنت أقضي كثيراً من أيامي هنا في مزرعة جدي، جدي ومات وأوصى أبي ألا يبيع الأرض، الأرضُ كانت تخسر في كل سنة، إلا إن أبي عملاً بوصية جدي لم يبيعها، خشيت أن يكون أبي سيوصي بأن تبقى الأرض!

في داخل كل إنسان حكاية، الحكايات عرفها الإنسان بفطرته، لكن طريقة الروي تختلف، فبعضهم تكون طريقته بالروي سلسلة أو مألحة، وبعضهم تكون فجة غليظة سمجة، تنبو عنها الأسماع وتميل عنها الأذواق، هكذا كانت حكايتي غريبة في سردها إلا إنها صادقة في سرد كل تفاصيلها، التشردُ الفكري الذي يعاني منه شبان الحياة الجديدة يدعو إلى القلق، الجيلُ الجديد سيدخل في مأزقٍ كبير، ويعيش الأزمات المتراكمة كلها، كأن فشل الماضين سيدفع ثمنها هؤلاء الصاعدون، القلقُ عبث بي وما يزال، أرى الحياة صغيرة للغاية، الأماكنُ أصبحت متشابهة، الأزمنة تقاربت، لم يعد وقت وزمانُ ملائمين لقضاء يومٍ يسر النفس ويهيج الروح، أزمة كورونا غيرت الكثير من الحياة ولا بدّ أن تتغير الكثير من القيم، سنن الحياة أصبحت عتيقة وربما غرور الإنسان سيسبب الدمار الأكبر، العودةُ إلى الوراءٍ مستحيلة، إذن لنسير ولكن ببطء وتروٍ حتى لا نضيع في متاهات التحضر الخطير، قد يظن ظان بأن التطور في سبل الحياة سيوفر لنا الحياة الحرة الجميلة، خطأً كبير هذا، بل ربما سيؤدي التطور السريع إلى مشاكلٍ كبيرة وخطيرة في ذات الوقت.

لم أحافظ على خديجة التي أحببتها، ولا رجحت عملي الذي كدت أفنى من أجله، لأكسب نفسي إذن، هذه النفس تستحق أن أعيش لها وأروضها ترويضاً حسناً، العزلةُ البشرية صارت هي السائدة، بالأمس القريب عندما خرجت لنا وسائل التواصل قد عزلتنا بصورةٍ تلقائية واليوم أقبلت كورونا لتزيد العزلة أكثر وتفصل عرى المجتمع الإنساني وتمزقه أكثر فأكثر.

التوحش والتفرعن الذي صارَ سمة هذا العالم، لن يعيد للإنسان طبيعته الأولى، الإنسان ضعيفٌ أمام إجراءات الحياة المسمومة، رجعتُ إلى أهلي مرتبياً في حضن أمي، شمتتُ رائحة الطفولة الأولى، براءتها، فطرتها، رقتها، هكذا منعتني ظروف الحياة عنها، لا يهم عندي إن خسرت الناس جميعاً وكسبت نفسي.

وجدتُ نفسي الضائعة، حالما ولجتُ مدينةً فقيرةً، يسكنها الفقراء والبسطاء، صرتُ أتجولُ في أزقتها، دخلت إلى السوق، رأيت أن هؤلاء يعملون بجدٍ وحذر من يومٍ ينقطع فيه الرزق، همومهم على قدرِ بساطتهم، الله تعالى اسمه أعطى الصبر للإنسان وأهمه إياه لئلا يفقد الأمل، وهل عُمرت الحياة لولا الأمل، رأيت أطفالاً يلعبون بصخب، ملابسهم رثة وقذرة، لكني رأيتهم يضحكون والسرور بادٍ على وجوههم، جلستُ في مقهى المدينة، وأخذت أنظر للناس، كل اثنين أو ثلاثة أو مجموعة منشغلةً بنفسها وبقصصها، بقيتُ أنا الوحيد الذي أفكر بهم، أنا مستاءٌ لمعيشة هؤلاء، أيعقل أن في القرن الحادي والعشرين وما زال الناس يعيشون هكذا! أما آن الأوان للعدالة أن تتحقق، أما آن الأوان للفكر أن يستيقظ فيمر على هؤلاء ليسكب الماء على وجوههم بعد نومتهم الطويلة، كأن الناس في سكرٍ استمر على مدى

ألوف من السنين، قلت لأكن أنا ذاك الذي يسكب الماء على وجوههم، أخذ خرطوم المياه، وربطته بأقربِ بالأنبوب الرئيسي، وصرت أرش الماء على الجالسين، انتفضوا بأجمعهم، كنت أظنهم يضربوني، أو يقتلوني، أو يشبعوني ركلاً، بل إنهم صاروا يشفقون عليّ، ظناً منهم بأنّي مجنونٌ.

تركتهم ومضيت، أتجولُ في مدنِ المجهول، أناسٌ لا أعرفهم، غريبٌ وليس كالغرباء، الغربالُ أصبحت ثقوبه كبيرة، لذا صار الجميع يسقط ولن يثبت أحد، أنا نفسي قد وقعت في هذا الغربال كثيراً، لا داعي للبؤس ما دامت الدنيا لها مدبرٌ، لأرمي بثقلي عليه، المشاكلُ تضني المرءَ وتقلقله، لكن بمجرد أن ييوحَ بها فإنها ستتلاشى، الشعورُ الذي أسعدني وأعادني إلى رشدي هو يقيني بمقولةٍ قالها صبيٌّ لصديقه، لما مررتُ بهما وهما يلعبان، كان هذا الصبيُّ يحاول أن يسترضى صديقه، وضع يده على ظهر صديقه وقال له: لا تقلق فإنَّ لها مُدبر.

رأيت أن الصبيَّ فرح وعاد إلى اللعبِ مسروراً، تأملتُ هذه المقولة بينما أنا عائداً من تشتتي وضياعي إلى مدينتي وداري، دخلتُ والبصيرةُ صارت أوضح لي، وانجلت الغمامة السوداء التي ظللت عيني كثيراً من الوقت، الهروبُ جبنٌ، ولا أرتضي أن أكون من الجبناء، أنا الذي هزمتُ الهزائم مجتمعة، فكيف لي لا أفضُّ من وعكةٍ بسيطةٍ كهذه!

إن العدالة قد غابت عنا كثيراً، فأقبلت كورونا لتكون هي العادلة، إذ الجميع سواسية أمامها، فلا فرق بين سيّدٍ أو مسوّد ولا بين غنيٍّ أو فقير، الجميع يقفُ بصمتٍ ووجلٍ أمامها، رأينا شخصيات لها مكانتها في العلم والسياسة والفن والغنى والقوة إلا إنهم خنعوا بذلٍ واضحٍ أمام كائنٍ لا يرى بالعين المجردة، المال والقوة لم تنفع أن تكون واسطة أمام كورونا، شخصياتٌ كثيرة رحلت واستسلمت معلنة هزيمتها أمام هذا الكائن الصغير جداً، القادمُ أسوء مما سبق، حتى تتدخل اليد الغيبية لتنقذ الكائنات الحية من نهاياتٍ مؤلمة قادمة بسرعة، الإنسان هو أكثر الكائنات الذي لا يريد أن يرى هذا الموت الفناء القادم، الحياة أصبحت في خطرٍ كبيرٍ يهددها بصورةٍ مباشرة، كورونا إنذارٌ أخير لا إنذارٍ بعده، إن الحياة ستدخل في مدخلٍ جديدٍ غريب، ربما النهايةُ وشيكة أو إنها البدايةُ القريبة لمرحلةٍ لا نعرف ملامحها حتى اللحظة، أنا في حيرةٍ من أمري، أتابع المقالات التي يصدرها الفلاسفة الأحياء والعلماء الذين ينشرون أفكارهم ورؤاهم عبر منصتي الكوكل واليوتيوب، إن الجميع متشائمٌ، لا يوجد ما يبعث الأمل في مقالاتهم أو أحاديثهم، هل تعي البشرية هذا الدرس؟

النهاياتُ بداياتٌ، كثيراً ما تكون نهايةُ قصةٍ بدايةً لقصةٍ أخرى، تفتح الستار عن نفسها لتترك المساحة لتروي حكايتها، بعض الحكايات تكون حزينة من أولها وتلبس ثوب الفرح في خاتمها وبعض يتركها الفرح منذ أول حكايتها،

أنا حكايتي لا تشبه الحكايات، حكايتي هي الضياع، التلاشي، الفناء، التدهور، سأروي حكايتي لنفسي فهي الصادقة الصدوقة التي لن تخونني ولن تشمت بي ولن تكون وسيلةً للتشهير بي، على الرغم من أنها العدو اللدود الذي يجب أن أحذره، أنا أكذُ وأسعى لأرضيها وأشبع نهمها وشهوتها في حب الملذات، الشهواتُ تدغدغ النفس لتوقعها في شراكها، أنا نفسي ما عادت ضعيفةً مهزوزةً، أنا الآن غير ما كنته، تعلمت الدروس والعبر، وربما سأتعظ بها، النفسُ أمانةٌ بالشرِّ ومولعةٌ به، لكني سأروضها لما به نفعها، الأمراضُ هي التي تربي البشر، ولم يكن مريباً أفضل منها منذ أن خلق الإنسان حتى يوم يبعثون، وكلما كان المرضُ أخطر وأخبث كلما كان الإنسان أكثر تأدباً، الإنسانُ جبانٌ ولا يملك إلا صوتٌ ينفثه كما تنفث الحية سمومها، الذين نجوا من كورونا لم يتأدبوا ولم يتعظوا إلا بأيامهم التي قضوها في السجنِ الصحيِّ الذي أُجبروا عليه، حالما بدت علامات الشفاء تدبُّ في أجسادهم حتى تفرعنوا وتوحشوا وعادوا إلى سجيتهم الأولى وربما أكثر حُبثاً من قبل.

خفافيش كورونا

COVID-19



المال والقوة لم تنفع أن تكون واسطة أمام كورونا, شخصيات كثيرة رحلت واستسلمت معلنة هزيمتها أمام هذا الكائن الصغير جداً, القادم أسوأ مما سبق, حتى تتدخل اليد الغيبية لتنقذ الكائنات الحية من نهايات مؤلمة قادمة بسرعة, الإنسان هو أكثر الكائنات الذي لا يريد أن يرى هذا الموت, الفناء القادم, الحياة أصبحت في خطر كبير يهددها بصورة مباشرة, كورونا إنذاراً أخيراً لا إنذار بعده, إن الحياة ستدخل في مدخل جديد غريب, ربما النهاية وشيكة أو إنها البداية القريبة لمرحلة لا نعرف ملامحها حتى اللحظة, أنا في حيرة من أمري .

A_4l_i



علي كاظم الشويلي

نصيمي



دار الورشة للطباعة والنشر
بغداد - المتنبي - مجمع الميالي
الهاتف : 07714343692
الأشراف الفتي : علي كاظم الشويلي

الورشة
دار للطباعة والنشر